بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# سورة المائدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾

الخطاب في هذه الآية الكريمة: للمؤمنين، والمراد بالعقود: جميع ما ألزمه الله عباده، وعقده عليهم، من: التكاليف، والأحكام الدينية، وما يعقدونه ـ كذلك ـ فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات، ونحوها مما يجب أو يحسن الوفاء به دينًا، والأمر بالوفاء بها: يعم الوجوب والندب.

ويلاحظ: أن الله ﷻ أمر بالوفاء بالعقود ـ **أولًا** ـ على وجه الإجمال، ثم شرع ـ **ثانيًا** ـ في تفصيل الأحكام، التي أمر بالوفاء بها.

كما يلاحظ:أنه سبحانه بدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم، فقال: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والبهيمة: كل ذات أربع، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني: يستثنى من هذا التحليل لكم ما يتلى عليكم تحريمه، ويقرأ عليكم في القرآن والسنة.

ففي القرآن مثلًا: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

وفي السنة مثلًا قوله ﷺ : «**كل ذي ناب من السباع، فأكله حرام**» [رواه: مسلم والنسائي].

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ أي: ما كان صيدًا، أي: لا وسيلة له إلَّا أن يُصاد، فهو حلال في الإحلال، دون الإحرام، أما ما لم يكن صيدًا: فهو حلال في الحِلِّ والإحرام.

وهذا استثناء بعد استثناء، يعني: هذا استثناء بالتحليل من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ

﴿عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه، والذي هو استثناء من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: لا يحل لكم الصيد، وأنتم في حال الإحرام بالحج أو بالعمرة.

ثم يقول تعالىٰ تقوية لهذه الأحكام الشرعية، المخالفة لمَا كان عليه العرب في جاهليتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ لا معقِّبَ لحكمه، يشرِّع ما يشاء كما يشاء، إذْ هو مالك الملك، لا مالك ولا حاكم سواه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

الخطاب في الآية كذلك: للمؤمنين مباشرة، وتشريفًا لهم، وحثًّا لهم علىٰ الاستجابة والامتثال لشرع الله، و﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: أي: شرائعه، ومعالم دينه، بصفة عامة.

والمعنىٰ: لا تُحِلُّوا شيئًا من فرائضه التي فرضها عليكم ـ أي: لا تعتدوا عليها ـ ولا من نواهيه التي نهاكم عنها.

ثم فصَّل سبحانه وتعالىٰ بعض هذه الشعائر تخصيصًا بعد تعميم، فقال:

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: بالقتال فيه.

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ أي: ما أهدي إلىٰ الحرم من النَّعم، والصدقات، بالتعرض له.

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وهي التي تُشد في عنق البعير وغيره.

والمراد: ولا الهدايا ذوات القلائد، بالتعرُّض لها.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تُحِلُّوا قتال قوم، أو أذى قوم، قاصدين البيت، حال كونهم يطلبون فضلًا ورزقًا من ربهم بالتجارة، وكذلك: رضوانًا منه، بحسب زعمهم الفاسد.

**يلاحظ:** أن هذه الشعائر الثلاث، الأولىٰ منها، والمشار إليها بقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ منسوخة بقوله تعالىٰ:

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأما الرابعة: والمشار إليها بقوله سبحانه ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ فمنسوخة بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

هذا ويقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي: إذا تحلَّلتم من إحرامكم ﴿فَٱصْطَادُواْ﴾ يعني: يباح لكم أن تصطادوا ما تريدون مما كان محرَّمًا عليكم، وأنتم في حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ يعني: ولا يحملنَّكم بغضكم لقوم، بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم، وتتجاوزوا الحق إلىٰ الباطل، والعدل إلىٰ الظلم.

وقد نزلت هذه الآية: لمَّا مرَّ ناسٌ من المشركين يريدون العمرة بالمسلمين.

فقال المسلمون: نصدُّهم كما صدَّنا أصحابهم في الحديبية، فنهاهم الله عن ذلك.

وبعد أن نهاهم عز وجل عن ذلك: أمرهم بالتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: تعاونوا علىٰ ما أمر الله، واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهىٰ الله عنه.

يقول الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: ندب الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ التعاون علىٰ البِر، وقرنه بالتقوىٰ له؛ لأن في التقوىٰ رضا الله، وفي البِر رضا الناس.

ومَن جمع بين رضا الله ورضا الناس: فقد تمت سعادته، وعمَّت نعمته، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ: يكون بوجوه: فواجب العالم.. أن يعين الناس بعلمه؛ فيعلِّمهم، ويعينهم الغني: بماله الحلال، ويعينهم الشجاع: بشجاعته في سبيل الله، بحيث يكون المؤمنون متظاهرين، كاليد الواحدة.

ثم نهىٰ عن التعاون علىٰ الإثم والعدوان، فقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: لا تتعاونوا علىٰ ما فيه معصية الله، أو العدوان علىٰ شرع الله، أو عباده.

وختم الآية بالوعيد الشديد لمن خالف ما أمر به، وما نهىٰ عنه، قائلًا:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: خافوا عقابه، فأطيعوه؛ حيث إنه شديد العقاب، لمن خالفه، وعصىٰ أمره، وارتكب ما نهىٰ عنه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ

﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

هذا شروع في بيان المجمل المحرَّم الذي أشار إليه رب العزة، في قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، والذي ذكر هنا، وهو مُحرَّم: أحد عشر شيئًا، كلها من الأطعمة، إلَّا الأخير، وهو الاستقسام بالأزلام.

و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ هي كل ما خرجت روحه دون ذبح وتذكية، ﴿وَٱلدَّمُ﴾ يعني: الدم المسفوح، أي:السائل، دون الكبد والطحال، ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ والمراد: الخنزير: بجميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه معظم المقصود منه، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ يعني: ما ذُبِحَ ولم يذكر عليه اسم الله، بل ذكر عليه غير اسم الله، ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تموت من الحيوانات خنقًا، سواء فعل بها ذلك آدمي، أو حدث لها ذلك بسبب حبل، أو بين عودين، أو غير ذلك، ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ أي: المقتولة ضربًا، بعصا أو بحجر، حتىٰ الموت، دون تذكية، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من مكان عال، فماتت، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ يعني: المقتولة بنطح غيرها لها، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: ما أكل منه وافترسه كل ذي ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد، والنمر، والذئب، ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يعني: ما أدركتموه، مما افترسه السبع، قبل أن يموت، وأدركتم فيه الروح، وذكَّيتموه بالذبح، فلكم أن تأكلوا مما بقي منه، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يعني: ما ذبح علىٰ اسم صنم، وقصد بذبحه تعظيم هذا الصنم، ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ والأزلام: جمع زلم، وهي: سبع قداح صغيرة، لا ريش لها ولا نصل، وعليها أعلام، كانت عند خادم الكعبة، وكانوا يستقسمونها، أي: يحكِّمونها في أمورهم، فإن أمرتهم: فعلوا، وإن نهتهم: انتهوا.

وهذا الاستقسام بالأزلام، أو كل ما سبق ذكره من المحرَّمات فسق، وخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالىٰ.

ولمَّا رأىٰ المشركون قوة الإسلام وأهله، وهم بعرفة: يئسوا أن يرتدَّ المسلمون عنه، بعد أن كانوا يأملون في ذلك، ويطمعون فيه، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ يُروىٰ: أنه جاء رجل من اليهود إلىٰ عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو أنزلت علينا معشر اليهود: لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: وأي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الحديث [رواه: مسلم].

كما رُوي: أنها لما نزلت يوم الحج الأكبر، وقرأها رسول الله ﷺ بكىٰ عمر رضي الله عنه فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يبكيك؟**».

فقال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذْ كمل: فإنه لم يكمل شيء إلَّا نقص.

فقال له النبي ﷺ: «**صدقت**».

**والمعنىٰ**: اليوم يئس الذين كفروا من أن يبطلوا أمر دينكم، وعلىٰ ذلك: فاثبتوا علىٰ مخالفة الكفار، واصبروا علىٰ حربهم لكم، ولا تخافوا منهم في مخالفتكم لهم، واخشوني وحدي أنصركم عليهم، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ أي: أجل نِعَم الله عليكم؛ وهي كمال الدين، فلا تحتاجون إلىٰ دين غيره، ولا إلىٰ نبي غير نبيكم، وبكمال الدين لكم: تمت النعمة عليكم، وقد ﴿رَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ فارضوه لأنفسكم، وحافظوا علىٰ مبادئه، واعملوا بتشريعاته.

ثم تعود الآية الكريمة: إلىٰ تمام بيان أحكام المحرَّمات في المطعومات.. حيث يقول تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **والمعنىٰ**: فمن كان مضطرًا في مجاعة إلىٰ أكل شيء من المحرمات السابقة، والمذكورة في صدر الآية فأكله: فلا إثم ولا ذنب عليه، بشرط: أن لا يكون متلبِّسًا بإثم، كقاطع الطريق مثلًا، وأن لا يأكل فوق حاجته التي يستدفع بها الضرر.

وفي هذه الحالة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ له، يتجاوز له عن إثم ما أكل من المحرَّمات، ﴿رَّحِيمٌ﴾ به، في إباحته له هذا الأكل، بخلاف المائل المتعمِّد للإثم فلا يَحِلُّ له الأكل.

ولما بيَّن الله ﷻ للمسلمين المحرَّم عليهم من المطعومات: سألوه عن الحلال لهم وصُوَره.. وكأنهم قالوا: ماذا أحلَّ لنا؟ فأنزل الله تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل الله لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فكان الجواب: قل لهم يا محمد: أَحَل الله لكم: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ أي: ما ليس بخبيث، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب الله تعالىٰ، أو سُنة رسوله ﷺ، أو إجماع الأمة، أو القياس.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: أحل لكم أكل ما اصطادته لكم الجوارح، التي علمتموهنَّ، وأدبتموهنَّ.. ككلب الصيد، والفهد، والصقر، وغير ذلك، يعني صيد هذه السباع، التي كنتم: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في حملهن وتدريبهن علىٰ الصيد لكم، **والحكم في ما صادته الجوارح**، قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كلوا الصيد إذا ظهرت علامة التكليب والتعليم علىٰ الذي صاده، وهي: إمساكه، **أي:** عودوا به إلىٰ صاحبه بعد صيده له، بشرط أن لا يأكل منه إذا كان الصائد كلبًا، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ الجارح عند إرساله، أو علىٰ الصيد إذا أدركتموه حيًّا وذبحتموه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: التزموا بشرعه، واحذروا مخالفته؛ حيث إنه محاسبكم علىٰ أفعالكم، بغاية السرعة والإنجاز.

ثم يقرر ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ ويمنُّ علينا، بإباحته لنا أكل الطيِّبات، فيقول عز وجل:

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

تذكير بالنعمة، وتأكيد لإباحة أكل الطيبات، وتحريم الخبائث، وبهذه المناسبة: يذكر تعالىٰ نعمة أخرىٰ، وهي بيان حكم الأكل من طعام أهل الكتاب، فيُقرُّ سبحانه وتعالىٰ: أن

ذبائح اليهود والنصارىٰ: حل لكم؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، كما أنهم يذكرون علىٰ ذبائحهم اسم الله، ومن باب المكافأة: يحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم أيضًا، والكلام: خاص بالذبائح حيث إن سائر الأطعمة الحلال، لا يختص حِلُّها بالمِلَّة، ومن تمام بيان الحلال الذي يدخل في سؤالهم: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: وأحل لكم كذلك: نكاح النساء المؤمنات المحصنات، والمحصنات: هن الحرائر، أو العفيفات.

وليس هذا بشرط لصحة النكاح، كما يقول الإمام النسفي رحمه الله: بل هو للاستحباب، حيث إنه يصح نكاح الإماء من المسلمات، ونكاح غير العفائف منهن، ولكن هذا التخصيص: من باب الحثِّ علىٰ التخيُّر لِنُطف المؤمنين، وبمناسبة الحلال في نكاح المسلمات: كان الكلام عن الحلال في نكاح الكتابيات بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ حلال لكم أن تنكحوهن، وهن اليهوديات والنصرانيات، وذلك: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: دفعتم إليهنَّ مهورهنَّ وكنتم: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي: مريدين الزواج علىٰ سُنَّة الله ورسوله، وكنتم كذلك: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ يعني: معلنين الزنا بهن، أيضًا: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ أي: ولا متخذي صديقات منهنَّ، تزنون بهنَّ سرًّا، وعلىٰ هذا: فالزواج والعلاقة الزوجية: هي المباح فقط.

ثم يقول عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يعني: ومَن يرتدَّ عن دينه، ويرجع عن الإيمان إلىٰ الكفر: فقد بَطُل عمله، وضاع عليه ثوابه، مهما كان هذا العمل، كمًا أو نوعًا، وكذلك: مَن يكفر بشرائع الإسلام؛

كما أنه: يكون من الخاسرين في الآخرة، إذا مات علىٰ هذا الكفر.

وهذا: تنبيه علىٰ ضرورة التمسُّك بأهداب هذا الدين، وعدم البعد عن أحكامه وتعاليمه، أو التنكُّر لها، والإنكار لصلاحيتها.

ومن باب تمام النعمة ما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ

﴿وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾

**معنىٰ الآية:** يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلىٰ الصلاة، وأنتم مُحدثون، أي: علىٰ غير وضوء، أو بَعْد أن كنتم نائمين ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مع المرفقين، وهما مفاصل الكوعين، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وفي ذلك خلاف لطيف.

هل يستوعب كل الرأس بالمسح، مرة واحدة، كما ذهب الإمام مالك؟ أو يمسح بعض رأسه، ويستحب ثلاث مرات، كما ذهب الإمام الشافعي؟ أو يمسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية، ثلاث مرات، ولو بماء واحد، كما ذهب الإمام أبو حنيفة؟ الكل جائز.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي: اغسلوا أرجلكم مع الكعبين، هذا عند الحدث الأصغر.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ يعني: فاغسلوا أبدانكم كلها، حتىٰ لا يبقىٰ شيء منها بدون غسل، ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ يعني: ﴿وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ﴾ مرضًا يضر صاحبه استعمال الماء، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مسافرين ولم تجدوا الماء، ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ من قضاء حاجته التي لابد منها، ولم تجدوا ماءً.

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتم نساءكم، ولم تجدوا ماءً.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ يعني: فالحكم في هذه الحالات الأربع.. أن تقصدوا ترابًا طاهرًا؛ لتتطهروا به.

ولكن: كيف يكون ذلك؟ ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ مع المرفقين ﴿مِّنْهُ﴾ بضربتين، وكان ذلك كذلك: لأنه ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ومشقة، في باب الطهارة، ولذلك: رخَّص لكم التيمُّم في هذه الحالات المذكورة؛ توسعة عليكم ورحمة بكم، أي: ما يريد ليجعل عليكم من حرج، كما ذكر.

﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب عند فقد الماء، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ برخصه الميسِّرة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته عليكم فيما شرَّع، وفيما يسَّر.

ثم ـ بعد ذلك ـ يذكِّر الله عباده المؤمنين بنعمته عليهم في تشريعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، فيقول عز من قائل:

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

**والمعنىٰ:** اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام، وعهده الذي عاهدكم عليه ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ للنبي ﷺ حينما بايعتموه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ في كل ما تأمر به، وتنهىٰ عنه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في عهده فلا تقطعوه، ولا تخالفوا فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما في القلوب، وبما في غيرها، من الأقوال والأفعال، فيجازي عليه.

ثم يأمر رب العزة المؤمنين بأمور هي من باب «التقوى»، فيقول عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** يا أيها الذين آمنوا كونوا قائمين لله بالحق في كل ما يلزم القيام به من العمل بطاعته، والبعد عن معصيته، ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل لا بالجور، وبالحق لا بالزور، ولو علىٰ أنفسكم، أو الوالدين والأقربين، ولا يحملنكم خلافكم مع قوم، أو كُرهكم لهم: علىٰ ترك العدل فيهم؛ حيث إن العدل في كل الأوقات، وفي كل الأحوال، ومع كل الناس: أقرب لتقوى الله، واكتساب مرضاته، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر ونهىٰ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد، وعد بالخير لمن اتقى والتزم، ووعيد بالعذاب لمن خالف وعصىٰ.

وبعد هذه التعاليم: يَعد ربنا مَن يلتزم، بالمغفرة، ومَن يخالف، بعذاب الجحيم، فيقول جل وعلا:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

**والمعنىٰ:** أن الله تبارك وتعالىٰ وعد ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بأنَّ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة.

وأما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ وعاندوا رسلنا، فـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ المُخلَّدون في النار، الملازمون لها.

ولمَّا كان أعداء الإسلام ـ وما يزالون ـ يريدون الفتك بالمسلمين، وإنزال الأذى بهم: ولكنَّ الله ﷻ كفَّ ـ وما يزال ـ أيدي هؤلاء الأعداء وأذاهم عن المسلمين، فقد قال سبحانه مذكِّراً ـ وما يزال ـ بهذه النعمة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** اذكروا نعمة الله عليكم بنجاتكم وقت أن هَمَّ قوم من أعدائكم، أن يبطشوا بكم بالإهلاك والقتل، وما يزالون يحاولون ذلك، ولكنَّ الله عز وجل: منع أيديهم وشرورهم، ومكرهم، وعصمكم منهم، وما أرادوا بكم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لكم، والمدافِع عنكم، والمتوكِّل بكم وبحمايتكم، وهذه نعمة متكررة شاهدها الصحابة مرات ومرات، ويشاهدها المسلمون في كل زمان، وهي: تحثُّنا علىٰ مزيد التقوىٰ، وبذل الجهد، والأخذ بالأسباب.

بعد أن أمر عز وجل هذه الأمة بالوفاء بالعقود، والطهارة والصلاة، وبعد أن ذكَّرها بنعمة الله عليها، إذْ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليها أيديهم: فكفَّ ذلك عنها، بدأ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ يبيِّن كيف أنَّه أخذ العهود والمواثيق علىٰ مَن كان قبلهم من أهل الكتاب ـ اليهود والنصارىٰ ـ فلمَّا نقضوا عهوده ومواثيقه، أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا من رحمته، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلىٰ الهدىٰ ودين الحق، فقال جل جلاله:

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** أخذ الله العهد علىٰ بني إسرائيل بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسل، ونصرتهم، والإنفاق في سبيل الله، ولو فعلوا ذلك: لكفَّر الله عنهم سيئاتهم،

وتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم، ولأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما مَن كفر منكم بعد ذلك الميثاق والعهد، فقد أخطأ طريق الصواب.

هذا، وقد أمر الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام، أن يأخذ من كل سبط من أسباطهم، نقيبًا منهم، ينقِّب عن أحوال القوم، ويتابعهم، ويفتِّش عنهم، ويكون كفيلًا عليهم؛ ليتمَّ الوفاء من بني إسرائيل بما عاهدوا الله عليه. فماذا حدث؟

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

فنقضوا الميثاق فأبعدهم الله من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية، وصاروا: يحرِّفون الكلم عن مواضعه إلىٰ غير ذلك، يقول سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ يعني بسبب نقضهم الميثاق الذي عاهدوا الله عليه، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ أي: طردناهم، وأخرجناهم من رحمتنا، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ لا رحمة فيها، ولا لِين، ولا قبول للإيمان، ووصلت بهم القسوة أنهم صاروا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة من صفة محمد ﷺ، وغيره ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يعني: يبدِّلونه عن الحق الذي وضعه الله عليه، كما أن القسوة وصلت بهم أنهم ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ أي: نصيبًا مما ذُكِّروا وأمروا به في التوراة من اتباع محمد ﷺ.

ثم ينتقل الكلام إلىٰ النبي ﷺ من المولىٰ تبارك وتعالىٰ تشريفًا له ولهم، وتنبيهًا لطبيعة اليهود، حيث يقول: ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد، وكذلك: يا أيها المسلم، ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ﴾ تَظْهر، وتتكشَّف، ﴿خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: علىٰ خيانة، أو فعلة ذات خيانة، ويُفهم من قوله: ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ أن هذه عادتهم، فلا تأمن لهم، وكذلك المسلمون من بعدك، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم، والذين يؤمنون كذلك، وهم أقلية قليلة، وهؤلاء القلة ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ وتجاوز عما سلف منهم، فلا تؤاخذهم به، كأدبك مع المؤمنين؛ حيث صاروا منهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

**يلاحظ**: أن الميثاق الذي أُخِذ علىٰ بني إسرائيل كان بخمسة أشياء، هي:

الصلاة، والزكاة، والإيمان بالرسل، ونصرتهم، وفعل الخير، وأنهم عوقبوا علىٰ النقض له بقسوة القلب، والطرد من رحمة الله، وهذه الأشياء نفسها أخذت علينا.

وعلىٰ هذا.. فمن رأى من قلبه قسوة: فلينظر أي شيء قصَّر فيه من هذه الأمور، حتىٰ يصلح حاله، ويلين قلبه. ثم يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** كما أخذنا علىٰ اليهود العهود، أخذنا كذلك علىٰ الذين قالوا إنا نصارىٰ، وابتدعوا لهم هذا الاسم، فماذا فعل هؤلاء أيضًا؟ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: تركوا وأهملوا ما نزل عليهم، وشُرِّع لهم، بل خالفوه، ومن ذلك: التوحيد والشرائع، ولذا عاقبهم علىٰ ذلك.

ولكن بماذا؟ يقول تعالىٰ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ أي: ألصقنا بين فِرَق النصارىٰ المختلفة والكثيرة العداوة، والبغضاء؛ حيث لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، بل كل فرقة تحرِم الأخرىٰ من الجنة في زعمها، ولا تدعها تدخل معبدها، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾والأمر فيهم هكذا إلىٰ يوم القيامة، وهو عقاب مستمر بهم، كما هو مُشاهد.

هـذا ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فـي الآخـرة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ ويجازيهم عليه.

وقد دلت الآية الكريمة: علىٰ أن نسيان جزء من الوحي يجعل الأمة تستحق العداوة والبغضاء، وأمتنا نسيت الكثير من الوحي، أو تركت العمل به، ولذا: فآثاره من العداوة والبغضاء بين أفرادها، وجماعاتها، وشعوبها مُشاهد، وواقع كما نرىٰ.

وبعد أن خاطب الله كل فريق من أهل الكتاب علىٰ حِدة، حيث بيّن لليهود نقضهم للتوراة، كما بيَّن للنصارىٰ نقضهم للإنجيل، خاطب الفريقين معًا قائلًا عز وجل:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

ومعنى الآية: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ تكتمون من كتابكم، وتخفونه، مثل: التوحيد، وتنزيه الله تعالىٰ، والشرائع، وصفة محمد ﷺ ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مما كنتم تخفونه، أي: يسكت عمَّا كنتم تغيِّرونه وتحرِّفونه، ولا فائدة في بيانه.

يا أهل الكتاب ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وهو محمد ﷺ، وسمي نورًا؛ لأنه يُهتدى بما جاء به، ويُقتدى بسلوكه وشخصه، وجاءكم أيضًا ﴿كِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح، ظاهر الإعجاز.

هذا الكتاب ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: يهدي به الله طرق السلامة، التي توصل إلىٰ رضوان الله، ورحمته، وجنته، وهي: الإيمان به، وبرسله، وبكتبه.

وبهذا الكتاب ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يعني: يُخرج بهذا الكتاب مَن آمن بالله ورسله وكتبه من ظلمات: الشرك، والشك، والشهوة، إلىٰ نور الإسلام والمعرفة، وكل ذلك ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ وإرادته، وتوفيقه، وفوق كل هذا، يا أهل الكتاب: يهديكم القرآن وما يحتويه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: إلىٰ الطريق الأقوم السليم، الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

يا أهل الكتاب: بعد بيان مهمة محمد ﷺ، وتوضيح هدي القرآن، هل يليق بمنصف ألَّا يؤمن بهما؟!! كلا، ومَن يكفر: فليسمع ما يلي:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

نعم، كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم ـ وهم «اليعقوبية»، فرقة من فرق

النصارىٰ، وأيُّ كفر أفظع من جَعْل البشر إلٰهًا ..؟ ولذلك: رد الله عليهم، وأبطل قولهم الفاسد، حيث قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ أن يدفع ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾ أو يرد قضاءه ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الذي زعموه إلٰهًا ﴿وَأُمَّهُۥ﴾ كذلك ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الناس ﴿جَمِيعًا﴾.

**ومعنىٰ هذا:** أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وهو وأمه عليهما السلام: من جنسهم، وقل لهم يا محمد كذلك ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ملكًا، يعني جميع الموجودات مُلْكه سبحانه، ومن هؤلاء المسيح ابن مريم وأمه، ومن كان مملوكًا لغيره: لا يصير ربًّا.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ذكر وأنثىٰ، كسائر الناس، ومن أنثىٰ بلا ذكر، كعيسىٰ عليه السلام، ويخلق بلا ذكر ولا أنثىٰ، كآدم عليه السلام ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم يَرُدُّ الله عز وجل علىٰ أهل الكتاب في افتراء آخر من افتراءاتهم.. بقوله عز وجل:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

**معنىٰ الآية:** قالت اليهود، وقالت النصارىٰ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ أي: مثل أبنائه في القرب والمنزلة والمحبة، وهو: كأبينا في الرحمة والشفقة.

قال الله تعالىٰ لحبيبه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: إن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه، فلم يعاقبكم ويعذِّبكم بذنوبكم، في الدنيا وفي الآخرة؟

ومعلوم: أن الأب لا يعذِّب ولده، وأن الحبيبَ لا يعذب حبيبه، وقد عُذِّبتم، فأنتم كاذبون في دعواكم، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم، ولا مزية لكم علىٰ أحد، إلَّا بالإيمان، والعمل الصالح، لوكان!! ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ دون اعتراض من أحد علىٰ هذا أو ذاك، حيث إن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع في النهاية، عند الحساب، والجزاء، وفي هذا: تنبيه، ووعد، ووعيد.

ويبيِّن الله ـ بعد هذا كله ـ لأهل الكتاب من خلال خطابه لهم: أنه قد أرسل محمدًا ﷺ، بعد فترة انقطاع للوحي وللرسل، بشيرًا ونذيرًا، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

**ومعنىٰ الآية:** يا أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ شرائع الله، وما كنتم تخفون، وما كنتم فيه تختلفون ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعد فتور وانقطاع للوحي والرسل، وكان إرساله ﷺ: لئلا تقولوا إذا عذبتم ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ فلم نُعذَّب إذًا !! ولذلك، وقطعًا لأعذاركم: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٞ﴾ للكافرين، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ومن ذلك: تعذيبكم إن لم تتبعوه.

وبعد ذلك: يذكِّر موسىٰ عليه السلام قومه بنعمة من نعم الله عليهم، ليستجيبوا له، ولكنهم يرفضون، ويعاقبون، وفي ذلك: تربية لأمة محمد ﷺ، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾

**ومعنىٰ الآية:** أن الله تعالىٰ يقول لمحمد ﷺ، ولكل فرد من أُمَّته، ليتعظ ويعتبر: اذكر وقت أن قال موسىٰ عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ فلا تنسوها، واعملوا بموجبها، واشكروا له عليها بصفة عامة ـ حيث إن نعم الله كثيرة، ثم ذكر ـ علىٰ وجه الخصوص ـ ثلاثًا من هذه النعم، لقومه:

**الأولىٰ:** أنه جعل منكم أنبياء، كيوسف، وموسىٰ، وهارون، عليهم السلام.

**الثانية:** وجعلكم ملوكًا أي: أحرارًا، بعد أن كنتم مستعبدين مستذَلِّين في أيدي القبط، وصرتم أصحاب خدم وحشم.

**الثالثة:** ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في زمانكم، من المن والسلوىٰ، وفلق البحر، وإغراق العدو، وغير ذلك.

ولذلك: رتَّب موسىٰ عليه السلام علىٰ التذكير بهذه النِعم أمرًا ونهيًا لهم، في قوله:

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾

**والمعنىٰ**: أنه لمَّا ذكَّرهم بنعمة الله عليهم، أمرهم بالخروج للجهاد، فقال آمرًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة، وهي أرض بيت المقدس وما حولها، ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم، وأمركم بدخولها، ثم قال ناهيًا لهم: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ﴾ أي: ولا ترجعوا عن دينكم وأحكامه وتعاليمه، أو: ولا ترجعوا علىٰ أدباركم خائفين من عَدوِّكم إذا رأيتموه، أو واجهتموه. وإلَّا.. ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ **أي**: ترجعوا ـ إذا رجعتم علىٰ أدباركم منهزمين خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. فلمعرفة ماذا كان جوابهم؟ كان جوابهم:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وهكذا بدأ الخوف، إنهم حتىٰ ما حاولوا الدخول، ولكن: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ عتاة، يجبرون الناس علىٰ ما يريدون، وبناءً علىٰ ذلك: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ﴾ للقتال، ولا بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بلا قتال، ﴿فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾. **وهنا:**

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

**معنىٰ الآية**: أنَّ بني إسرائيل لمَّا خافوا من الدخول، وتعلَّلوا لعدم تنفيذ أمر الله تعالىٰ الذي قاله موسىٰ عليه السلام لهم: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ مؤمنان يتَّصفان بصفتين:

**الأولى**: ﴿يَخَافُونَ﴾ الله، ويخشونه، ويتقون عذابه.

**الثانية**: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بنعمة التقوىٰ والخوف منه، ماذا قالا؟ قالا لهؤلاء القوم الخائفين: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ أي: باب القرية، ولا تخافوهم، فهم أجساد بلا قلوب ولا عقول، ولذلك ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ لهم بإذن الله، فتوكلوا علىٰ الله وادخلوا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وسينصركم عليهم؛ حيث إنه تعالىٰ لا يخذل أولياءه.

ماذا فعل القوم؟ لم يلتفتوا إلىٰ كلام هذين الرجلين المؤمنين، بل:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

**يعني**: هذا قرارنا النهائي ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ﴾ ولن نحارب، وأما أنت، فإذا كنت تريد الدخول، وقتال هؤلاء الجبارين ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ هؤلاء القوم ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ممتنعون عن القتال، ننتظر ماذا ستفعل معهم، وماذا سيفعلون معك، ولا دخل لنا بشيء، وهكذا عصوه، وخالفوه، وخذلوه، وفسقوا، ولذلك:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

**ومعنىٰ الآية**: أنه توجه إلىٰ ربه، وبثّ شكواه، وأعلن عجزه، وطلب نُصرة مولاه، حيث ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ﴾ فقط، ولذلك ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: افصل بيننا وبينهم، واحكم لنا بما وعدتنا، واحكم عليهم بما هم أهله، وباعد بيننا وبينهم، وخلِّصنا من صحبتهم.

وكان الجواب في قوله تبارك تعالىٰ:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

**يعني**: أجاب الله دعاءه عليه السلام، حيث ﴿قَالَ﴾ له: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الأرض المقدسة؛ إذْ إنه عز وجل كتبها لهم بشرط الجهاد، فلما أبوا، مُنِعوا من دخولها عدلًا، ولم يُمنَعوا من التعبُّد فيها فضلًا منه سبحانه، وكان هذا التحريم لمدة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، ماذا يفعلون خلالها؟ ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ يسيرون فيها تائهين متحيِّرين.

هذا حكم الله فيهم يا موسىٰ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: فلا تحزن عليهم؛ حيث إنهم فسقوا وخالفوا وعصوا، فاستحقوا هذه العقوبة.

إن المولىٰ سبحانه بعد أن قال لمحمد ﷺ: اذكر لليهود ولأمتك كذلك ما طالب به موسىٰ عليه السلام قومه أن يذكروا نعمة الله عليهم؛ ليستجيبوا لشرع الله تعالىٰ، وليُقبِلوا علىٰ الجهاد في سبيل الله، ولكنهم لم يفعلوا بسبب طبيعتهم في نقض المواثيق والعهود، بعد هذا: قال لحبيبه ﷺ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَٱتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ قومك، وعلى أهل الكتاب، هذه القصة، ليعرف الجميع ما يجرّ ويؤدي إليه الحسد من قطع ما أمر الله به أن يوصل، والقتل، الذي هو أشدُّ إفسادًا في الأرض، اتل عليهم:

﴿ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ هابيل وقابيل.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وأنت صادق فيما تقول.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: قدَّم كل واحد منهما ما يتقرب به إلىٰ ربه صَدَقةً.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه، وهو هابيل.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ قربانه، وهو قابيل.

﴿قَالَ﴾ قابيل: حسدًا لأخيه ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، قال هابيل: لِمَ ؟، قال قابيل: لتقبُّل قربانك، وعدم تقبُّل قرباني، ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ولو كنتَ من المتقين لتقبل الله منك. ثم قال هابيل لأخيه:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يعني: علىٰ كل حال ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ﴾ أي: مددتها إلي ﴿لِتَقْتُلَنِى﴾ لن أعاملك بالمثل، و﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، حيث ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في قتلك.

ثم قال هابيل أيضًا: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ﴾ يا أخي ﴿أَن﴾ لا تكون قاتلًا،

حتىٰ لا ﴿تَبُوٓأَ﴾ ترجع حاملًا ﴿بِإِثْمِى﴾ أي: ذنبي إذا قتلتني ﴿وَإِثْمِكَ﴾ أي: ذنبك، الذي بسببه لم يَتقبَّل الله قربانك، وهو: عقوق الأب، والحسد والحقد، ولو فعلت ذلك وقتلتني ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا أريد لك، ولا لنفسي ذلك.

وبالرغم من هذا الكلام الطيِّب، والنصائح الشفوقة من أخيه، فإن الله ﷻ يخبر عن موقفه بقوله:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: فزيَّنت ﴿لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ وشجَّعته علىٰ ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ حسدًا وظلمًا، ولم يقاومها، ولم يخف الله في ذلك، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ أي: قتل قابيل هابيل، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ بقتل أخيه، وسفك الدم الحرام، ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة.

وقد دل هذا: علىٰ أن القتل بغير حق.. هو ذروة الضلال، حيث إنه: نقض عهد، وقطع رَحِم، وإفساد في الأرض، وظلم للعباد.

وهنا لم يَدْرِ قابيل ما يصنع بأخيه المقتول؛ لأنه أول ميت علىٰ وجه الأرض من بني آدم، كل الذي فعله أنه حمله علىٰ ظهره، وصار يدور به من مكان إلىٰ مكان، دون أن يدري ماذا يفعل؟

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

وهو يحمل أخاه علىٰ ظهره، ويدور به، ولا يدري ماذا يفعل، ماذا حدث؟ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ينبش التراب بمنقاره، وبرجليه، ويثير التراب علىٰ غراب ميت معه، حتىٰ واراه، وأخفىٰ جثته، وكان هذا ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ الله ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ يدفن ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ جثته ويستر عورته.

ثم ﴿قَالَ﴾ لمَّا عرف عجزه، وقلة حيلته، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ الذي دفن ووارىٰ جثة أخيه ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ كما فعل الغراب.

وبالفعل، وارىٰ ودفن أخاه، وشعر بالندم والخزي علىٰ ما فعل ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ علىٰ قتل أخيه، وفقده، وعدم اهتدائه للدفن الذي تعلَّمه من الغراب.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** من أجل هذا القتل الذي فعله قابيل ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لأنَّ كتابهم أول كتاب سماوي، وهو حكم في كل دين وشريعة.

ولكن ماذا كُتِب؟ ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: دون أن يكون قصصًا ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أو فساد منها، كَشِرك، أو قطع طريق، مَنْ فعل ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾ لأن الاعتداء علىٰ نفس واحدة اعتداء علىٰ الناس جميعًا وكذلك ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنقذها من هلاك، بغرق أو قتل، أو غير ذلك، مَن فعل ذلك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ لأن إحياء نفس واحدة إحياء للناس جميعًا. ثم يعقِّب الله علىٰ هذه القصة بشيء من طبيعة بني إسرائيل، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات، والدلائل الباهرات، ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد مجيء هؤلاء الرسل، ومعرفتهم لهذه الآيات، وظهور الحق أمامهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ متجاوزون كل حد، ومن ذلك القتل، حيث لا يبالون بفظاعته، ولا يحترمون النفس البشرية، حتىٰ إنهم قتلوا الأنبياء.

وبعد أن قرر المولىٰ شناعة قتل النفس، إلَّا في حالة القصاص، وحالة الإفساد في الأرض، ذكر سبحانه حكم الذين يحاربون الله ورسوله، ويفسدون في الأرض بقوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

نزلت هذه الآية في قوم من العرب، قَدِموا المدينة، فأقاموا بها، ولم يستريحوا فيها،

فبعثهم رسول الله ﷺ إلىٰ البادية في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، وصحَّت أجسامهم، ولكنَّهم.. ارتدُّوا عن الإسلام، وقتلوا راعي الإبل، وساقوها ـ يعني سرقوها ـ، فأرسل النبي ﷺ في آثارهم، فجيء بهم، وقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف إلخ، ونزلت الآية. وهي في حكم الحرابة.

**ومعناها:** أن جزاء الذين يحاربون دين الله، وكتابه، ورسوله، والمسلمين، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بقطع الطريق، وإفساد البلاد، وإضرار العباد: هو ما يلي:

**أولًا:** ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا﴾ واحدًا بعد واحد، دون صلب وقطع.

**ثانيًا:** ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓا﴾ مع القتل.

**ثالثًا:** ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ، وهكذا.

**رابعًا:** ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: يُحبسوا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور ﴿لَهُمْ خِزْىٌ﴾ أي: ذل ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وفضيحة، ﴿وَلَهُمْ﴾ كذلك ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهي: نار جهنم.

ولكن ما حكم مَن يتوب من هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

**يعني:** مَن تاب من هؤلاء المحاربين، وسلَّم نفسه، من قبل أن يُقبض عليه: فتسقط عنه هذه الحدود المذكورة، والتي هي حق الله تعالىٰ.

وأما حقوق العباد: فعليه أن يؤدِّيها، كَمالٍ مسروق، أو غير ذلك.

﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم علىٰ ما فعلوه من قبل، يغفره لهم بالتوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، فلا يعذبهم، بل يرحمهم بسبب توبتهم.

ثم يتوجه ربنا تبارك وتعالىٰ بالخطاب للمؤمنين قائلًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾

**والمعنى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خافوا عقاب الله، وأطيعوه، ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ﴾ أي: واطلبوا ﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: ما يقرِّبكم إليه من طاعته، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ لإعلاء دينه، ونشر هديه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون برضوانه، ونعيمه.

**ويلاحظ:** أن طريق الفلاح في الآية هو: التقوى، والعمل الصالح، والجهاد.

ولذلك: مَن فرَّط في هذا الطريق، أو بواحدٍ من مفرداته، ضاع منه الفوز والفلاح.

ثم يرغِّب ربنا ﷻ في وجوب المسارعة إلى امتثال الأوامر التي ذُكِرَت في الآية السابقة فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

**ومعنى الآية:** إن الذين كفروا حين يعاينون العذاب يتمنُّون الهروب منه، وافتداء أنفسهم بالغالي والنفيس، و﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف أموالها، وذخائرها، وسائر منافعها: لافتدوا به من هذا العذاب، ولو أنَّ لهم ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ كذلك: ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يعاينوه، لو أنَّهم يفتدون أنفسهم بهذا وذاك ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ﴾ لا هذا ولا ذاك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع ثابت، لا يغيب عنهم، يعني: يدخلون النار، ويُعذَّبون فيها عذابًا أليمًا، فإذا دخلوا النار، وعُذِّبوا فيها:

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

**يعني:** يتمنُّون ويطلبون ﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولكن ﴿مَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ﴾ أبدًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: عذاب دائم، لا ينقطع عنهم.

وبعد بيان أحكام السرقة الكبرى، في آية الحرابة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] يبين ربنا ﷻ أحكام السرقة الصغرى في قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

**يعني**: حكم السارق والسارقة، أن تقطع اليد اليمنىٰ من كل واحد منهما، رجلًا كان أو امرأة، حتىٰ الرسغين، وذلك: مجازاة من الله لهما علىٰ صنيعهما هذا، وكذلك: عقوبة رادعة منه ﷻ. ويلاحظ:

١ ـ أن الذي يُقطع فيه ربع دينار فصاعدًا.

٢ ـ أن السارق إذا عاد للسرقة بعد إقامة هذا الحد عليه: قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، ثم إذا عاد ثالثًا: قطعت اليد اليسرىٰ، فإذا عاد رابعًا: قطعت الرجل اليمنىٰ، فإذا عاد بعد ذلك: يعزَّر بما يراه الإمام أو القاضي.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب علىٰ أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه، وفي ما يناسب خلقه.

ومن طرائف ما يُذكر أن بعض الزنادقة اعترض علىٰ الفقهاء، إذْ جعلوا نصاب السرقة: ربع دينار فقال:

**يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ وُديتْ ... مَا بالُها قُطعتْ في رُبْع دينار؟**

**تحكُّمٌ ما لنا إلَّا السكوتُ له ... وأن نعوذَ بمولانا من النَّار**

فأجابه أحد العلماء بقوله:

**عِزُّ الأمانةِ أغلاها وأرخصَها ... ذلُّ الخيانةِ فافهم حكمةَ الباري**

وعلىٰ كل حال: ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السرقة ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ بهذا الفعل لنفسه، ولمن ظلمهم، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بَردِّ المسروق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يقبل توبته و﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يغفر ذنبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعفو عنه، ويرحمه، بشرط رَدّ الحقوق لأصحابها. ثم يقول الله تعالىٰ للنبي ﷺ، ولكل أحد:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

**ومعنىٰ الآية**: اعلم أن الله تبارك وتعالىٰ له ملك السمٰوات والأرض، وما فيهن، ومن فيهن.

وما دام هو المالك، ولا مالك سواه: فإنه ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وقد شاء أن يعذِّب مَن مات علىٰ الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وقد وعد أن يغفر لمن تاب عن

الكفر قبل أن يموت، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والمغفرة، وغير ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: قادر.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

الخطاب في هذه الآية: لرسول الله ﷺ.. عن صنفين من الناس يسارعون في الكفر وهما: المنافقون، واليهود.

**ومعنى الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ صنع ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ويقعون فيه بسرعة، ويظهرونه إذا لاحت لهم فرصة، وذلك يحدث: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بألسنتهم، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾ في حقيقة الأمر، وهم المنافقون، ويحدث كذلك: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ﴾ وهم قوم من اليهود، يتَّصفون بصفتين:

**الأولى:** ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ من أحبارهم، ونَقْلِه للعوام.

**الثانية:** ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ للحق منك، ونقله لأحبارهم، ليحرِّفه الأحبار، ﴿لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ من اليهود ﴿لَمْ يَأْتُوكَ ۖ﴾ لتكبُّرهم، وبغضهم لك، وكراهيتهم أن يحضروا مجلسك.

هؤلاء اليهود: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة، كآية الرجم، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ التي وضعها الله عليها، يعني: يبدِّلون كلام الله ويغيِّرونه، كما حدث حينما زنىٰ منهم شريفان محصنان، وكان حدهما في التوراة الرجم، ولأنهم كرهوا رجمهما لشرفهما: بعثوا رهطًا منهم ليسألوا النبي ﷺ، عسىٰ أن يجدوا لهما غير الرجم، ولكن النبي ﷺ: أمرهم بالرجم، فلم يعجبهم ذلك، حتىٰ أظهر الله هذا الحكم، وهو الرجم علىٰ أيدي علمائهم من التوراة.

وكان اليهود يقولون لمن أرسلوهم للنبي ﷺ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ الحكم الذي تريدون، وهو الجلد للزانيَيْن المحصنَيْن، وأفتاكم به محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه، وَنَفِّذوه، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم بخلافه ﴿فَٱحْذَرُوا۟﴾ أن تقبلوه.

وهكذا ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ وإضلاله ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ في دفع هذه الفتنة عنه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقون واليهود ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر، ولو أراد ذلك لكان، وهذه عقوبتهم: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ ذل الفضيحة للمنافقين، وذل الجزية لليهود، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في عذاب جهنم. ثم يتم المولىٰ حديثه مع النبي ﷺ عن اليهود بقوله عز وجل:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالىٰ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ تكرير لتأكيد هذه الصفة فيهم.

ومعنىٰ الآية: أن من صفات اليهود الراسخة فيهم أنهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يتلذذون بذلك، بل يختلقونه ليسمعوه، ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ مبالغون، شرهون في أكل السحت، وهو كل ما لا يَحِل كسبه من المال الحرام، ويدخل فيه السرقة، والرشوة.. إلخ.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد، لتحكم بينهم، فأنت بالخيار ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

ويلاحظ: أن هذا التخيير.. قد نُسِخ العمل به، وذلك بقوله تعالىٰ:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

وكان الحكم في هذا التخيير المنسوخ، أنه: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولم تستجب لهم: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ حيث إن الله تعالىٰ يعصمك من الناس، ويدفع عنك أذاهم، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ بينهم، واستجبت لهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

ولكنَّ.. أمرهم عجيب!!

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** عجيب أمر هؤلاء اليهود!! كيف يأتون إليك، ويطلبون حكمك، وهم لا يؤمنون بك، ولا بكتابك!! في الوقت الذي يوجد فيه الحكم الذي يسألون عنه في كتابهم الذي يُدعون إلى الإيمان به، منصوص عليه في التوراة.

والأعجب من هذا أنهم بعد تحكيمك، وحكمك فيهم ولهم، الموافِق لمَا في كتابهم: لا يرضون به.

حقًّا: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا بك، ولا بكتابك، ولا بكتابهم كما يدَّعون.

هذه التوراة، التي لا يرضون بأحكامها: يرفع الله ﷻ شأنها، ويعلي من منزلتها؛ بيانًا لسوء تصرفهم معها، وعدم إيمانهم بها، فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علىٰ موسىٰ عليه السلام، ﴿فِيهَا هُدًى﴾ من الضلالة؛ يهدي للحق، ﴿وَنُورٌ﴾ يبين للناس الأحكام، التي يحتاجون إليها. ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ من بني إسرائيل، موسىٰ عليه السلام، ومن بَعدَه منهم، هؤلاء النبيون هم ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ أي: انقادوا لحكم الله في التوراة، وهي صفة مدح، أريد بها التعريض باليهود الذين يعادون ملة الإسلام، دين الأنبياء وأتباعهم جميعًا، يحكمون بها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ عامة اليهود، ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ العلماء منهم، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الفقهاء منهم. وكان حكمهم هذا ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: استودعه الله عندهم، واستحفظهم عليه، حتىٰ لا يبدل، أو حتىٰ لا يبدلوه هم.

﴿وَكَانُوا۟﴾ في الوقت ذاته ﴿عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أنه حق لا شبهة فيه.

ثم ينهىٰ ربنا ﷻ مَن يحكم بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ في حكمكم لهم أو عليهم أبدًا، ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ واتقون.

وهو: نهي لمن يحكم، أن يحكم بغير العدل؛ بسبب الخشية من سلطان ظالم، أو الأذية من أحد.

وكذلك: ينهىٰ مَن يحكم قائلًا: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا أحكامي، أو تغيِّروا فيها، أو تظلموا بسببها من أجل ثمن قليل، رشوة مثلًا، أو ابتغاء جاه، أو مرضاة لأحد، حيث إن ذلك ـ لو كان ـ يكون: حكم بغير ما أنزل الله .﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهينًا به، أو منكرًا له، أو مفضِّلًا لغيره عليه، أو مُستحِلًا ما حرَّم الله .﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ بالله تعالىٰ، ورسله، وما أنزل الله.

وما أكثر هذا ـ بكل أسف ـ في عصورنا!!

ثم يوضِّح ربنا تبارك وتعالىٰ بعض ما جاء في التوراة، بقوله عز وجل:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** أنا فرضنا علىٰ اليهود في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ تقتل ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ إذا قتلتها بغير حق.

﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تُفقأ ﴿بِٱلْعَيْنِ﴾ إذا فُقِئتْ.

﴿وَٱلْأَنفَ﴾ تُجدَع ﴿بِٱلْأَنفِ﴾ المجدوعة.

﴿وَٱلْأُذُنَ﴾ تقطع ﴿بِٱلْأُذُنِ﴾ المقطوعة.

﴿وَٱلسِّنَّ﴾ تُقلع ﴿بِٱلسِّنِّ﴾ المقلوعة.

أما ﴿ٱلْجُرُوحَ﴾: فهي ﴿قِصَاصٌ﴾أي: يُقتص فيها إن أمكن ذلك كاليد، والرجل، ونحو ذلك، وما لا يمكن فيه القصاص: ففيه الحكومة، وهي جزء من دية النفس.

**ويلاحظ:** أن هذا الحكم، وإن كُتِبَ عليهم فهو مقرَّر في شرعنا.

هذا هو الحكم، ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بالقصاص، من أصحاب الحق وعفا

عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي: كفارة لخطايا المتصدق، بإحسانه، وتنازله عن هذا الحق، وعفوه عن صاحبه، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في هذه الأشياء، التي فيها القصاص، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث لم يعدلوا، وامتنعوا عن الحكم بما أنزل الله في هذه الأشياء، التي شُرِّعتْ لهم في التوراة.

وبعد أن بيَّن الله أحكام التوراة: يبدأ في بيان أحكام الإنجيل، فيقول عز وجل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** وأتبعنا أنبياءهم بعيسىٰ ابن مريم، وجعلناه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مؤمنًا، وحاكمًا، وبانيًا أحكامه علىٰ ما سبقه من التوراة، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ مع ذلك ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ حال كونه، ﴿فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة، يهدي إلىٰ الحق، ﴿وَنُورٌ﴾ يبيِّن للناس الأحكام، التي يحتاجون إليها.

هذا الإنجيل كذلك: جعلناه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: غير مناقض لها، ولا مخالف لما فيها، بل مصدِّق لأحكامها، كما أنه ـ أي: الإنجيل ـ في ذاته: ﴿هُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ أي: هاديًا وواعظًا، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حيث إنهم الذين ينتفعون بوعظ الإنجيل لهم، وهديه فيهم. وقلنا لأهل الإنجيل:

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** أنَّا أمرنا أهل الإنجيل، أن يحكموا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من الأحكام، وفرضنا ذلك عليهم، وبيَّنا أن: ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في الإنجيل، وفي كل كتاب أنزله الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لا يحكمون بذلك ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

وبعد الكلام عن التوراة، وبعد الكلام عن الإنجيل، يأتي الكلام عن القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ القرآن، بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، وليبيِّن الصواب من الخطأ في كل شيء.

أنزلنا إليك القرآن، حال كونه:

**أولاً:** ﴿مُصَدِّقًا﴾ لما تقدمه من كتب سماوية، لموافقته لمَا فيها، قبل تحريفها، وتبديلها.

**ثانياً:** ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ عليها أي: شاهدًا علىٰ ما فيها؛ حيث إنه تضمن ما جاء فيها، وزاد عليها من الكمالات ما لا يحيط به إلَّا الله، لذلك: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ يا محمد، ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتنصرف بسبب ذلك، ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي لم يبدَّل، ولم يحرَّف، ولم يأت من الله ما ينسخه ويغيِّره. وكان ذلك حيث إنه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: لكل منكم شريعة، وطريقة، ولكن الدين واحد، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجتمعين علىٰ شريعة واحدة وطريقة واحدة، ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ذلك الاختلاف بينكم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: يختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة؛ حيث تعبد كل أمة بما اقتضته الحكمة الإلٰهية، حتىٰ أنزل سبحانه وتعالىٰ القرآن، فتعبَّد الناس جميعًا به وبأحكامه، ولذلك ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: تسابقوا في تنفيذ ما جاء به محمد ﷺ، قبل فوات الأوان، خاصة وأنه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ثم يؤكد ربنا ﷻ الأمر بوجوب الحكم بما أنزل الله وحده، فيقول جل جلاله:

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

هذه الآية: نزلت في شأن الدماء، والديات، ومعناها: أنزلنا إليك الكتاب يا محمد لتحكم بينهم بما فيه، فاحكم بينهم بما أنزل الله.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء أهل الكتاب، أو أية أهواء، بصفة عامة، تخالف شرع الله، ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: احذر منهم، ﴿أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: احذر منهم أن يصرفوك ويبعدوك عن بعض شرع الله الذي أنزله الله عليك.

ولهذه الآية.. قصة.. ملخَّصها: أنَّ فريقًا من اليهود في المدينة ذهبوا إلىٰ النبي ﷺ؛ ليفتنوه عن دينه، وقالوا: يا محمد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأشرافهم، وأنَّا إن اتبعناك: اتبعنا اليهود، ولم يخالفونا، وأنَّ بيننا وبين قومنا خصومة وسنتحاكم إليك، فاقض لنا عليهم، نؤمن بك ونصدقك، فأبىٰ رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، فتولَّوا عنه.

لذا يقول رب العزة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنك، وعن الحكم بما أنزل الله إليك، وأرادوا غيره: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ومنها: التولِّي عنك، ورفض حكم الله، ويجازيهم عليها جميعًا، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله تعالىٰ، وبعيدون من رحمته.

عجيب!! ما لهؤلاء القوم يتولون عنك، وعن حكم الله!!

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

**والمعنىٰ**: ماذا يريد هؤلاء الناس؟ أيريدون حكمًا غير حكم الله؟!!! ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ﴾ أي: يطلبون؛ إذْ يرفضون حكم الله العالِم العادل سبحانه وتعالىٰ.

فليخبرونا إذًا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾!! إنه: لا أحسن أبدًا من حكم الله حكمًا ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ حيث إنهم الذين يثبتون، ألَّا أعدل من الله، وألَّا أحسن من حكمه حكمًا.

وبعد هذا، ينهى ربنا تبارك وتعالىٰ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فيقول جل وعلا:

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾

قيل في سبب نزول لهذه الآية: أنه لمَّا كانت وقعة أحد، اشتد الأمر علىٰ طائفة من الناس، فقال أحد رجلين لصاحبه: إني ذاهب إلىٰ فلان اليهودي، آوي إليه، وأتهوَّد معه؛ لعله ينفعني إذا وقع أمر، أو حدث حادث.

وقال الآخر: أما أنا، فإني ذاهب إلىٰ فلان النصراني بالشام، فآوي إليه، وأتنصَّر معه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: غير ذلك من الأسباب في نزولها، ولكنَّ العبرة ـ كما يقول العلماء ـ بلفظ الآية العام، وليس بسبب نزولها الخاص.

**ومعنىٰ الآية:** ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تنصرونهم، وتطلبون نصرتهم، وتأنسون إليهم، وتعاشرونهم معاشرة المسلمين، والسبب أن: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ حيث إنهمُ متَّحِدون في الكفر، والكفر كله ملة واحدة، يعادي أهله الإسلام والمسلمين، علىٰ ذلك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: من جملتهم، ومن أهل دينهم، وهم في هذه الحالة: من الظالمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلىٰ الصواب، فيقعون في الضلال والضياع.

ثم يبيِّن ربنا الحكيم العليم: كيفية هذه الموالاة، وسببها، وما تؤدي إليه، فيقول عز وجل:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

**يعني:** ترى هؤلاء الذين يوالون اليهود والنصارىٰ، وهم الذين في قلوبهم مرض ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ بالمبادرة في معاونتهم، أو اللجوء إليهم، أو طلب نصرتهم، وهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لأنفسهم، أو للمؤمنين، أو لليهود والنصارى: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يعني: نخاف أن تصيب المسلمين هزيمة، أو ينزل بهم مكروه، وهنا: يَرُدُّ الله عليهم، ويقطع عِللهم الباطلة، وأطماعهم الفارغة، ويبشر المؤمنين بالنصر والغلبة.

حيث يقول: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ بالنصر وإظهار الدين، وهذا وعد من الله لا يتخلف؛ ﴿فَعَسَى﴾ إذا كانت من الله: فهي وعد لا يتخلف، كما يقول العلماء، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بِهَتْك سَتْر هؤلاء المسارعين لموالاة اليهود والنصارىٰ، وفي هذه الحال: ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الشك وموالاة أعداء الله ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

وأما الذين آمنوا: فيُصَوِّر الله موقفهم آنذاك بقوله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾

**يعني**: إذا انتصر المسلمون، وانكشف المنافقون، وفضح الله سترهم، وكشف كذبهم ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وثبتوا علىٰ الإيمان، ولم يوالوا أعداء الله، لبعضهم البعض، متعجِّبين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ أي: أليس هؤلاء الذين فضحهم الله هم ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ لكم بأغلظ الأيمان: أنهم أولياؤكم ضد أعدائكم؟ يقول تعالىٰ: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ ضاعت أعمالهم؛ لأنها كانت رياءً وسمعة، ولم يكن فيها صدق لله تعالىٰ ولا إخلاص، ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا بالفضيحة وسوء الحال، وفي الآخرة بالعقاب وسوء المآل.

وبعد أن انتهىٰ ربنا ﷻ عن موالاة الكافرين، حيث إنها من طرق الارتداد عن دين الله، بدأ في بيان حال المرتدين عمومًا، حيث يقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾

**ومعنىٰ الآية**: الإخبار بما علم الله تعالىٰ وقوعه من ارتداد بعض الناس، وقد ارتد جماعة بعد موت النبي ﷺ، ولا يزال البعض يرتد كذلك، وإن كانوا قِلة لا يؤبه لها.

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ الإسلام، ويعود إلىٰ الكفر فلا وزن له، ولا أثر منه، وضرره علىٰ نفسه؛ حيث إن دين الله غالب، وأمر الله ظاهر، وأيضًا: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ﴾ بدلًا منه ﴿بِقَوۡمٖ﴾ هذه أوصافهم:

١ - ﴿يُحِبُّهُمۡ﴾ أي: يلهمهم الطاعة، ويثيبهم عليها، ويريد لهم خيري الدنيا والآخرة.

٢ - ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ أي: يطيعون أوامره، ويبتعدون عن معاصيه.

٣ - ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: عاطفين عليهم علىٰ وجه التذلُّل والتواضع، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

٤ ـ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: متغلِّبين عليهم، مترفِّعين عن دناءاتهم، وهي عزة عن قوة لا عن ضعف وعجز.

٥ ـ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لنصرة دينه، وحماية أوليائه، وإعلاء كلمته، وحالهم في جهادهم هذا، وفي كل أحوالهم، أنهم:

٦ ـ ﴿لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ في القتال في سبيل الله، أو في أمر يخص دين الله.

**ويلاحظ**: أنه في عصرنا هذا تزداد حملات الإعلام العالمي ضد الجهاد في سبيل الله، وأهله، كما يلاحظ: أنه في عصرنا ـ أيضًا ـ تزداد حملات الملامة والاتهامات، ضد مَن يجاهدون في سبيل الله.

ومن هنا: يدرك المسلم ضرورة التحقُّق بهذه الصفات، التي ذكرها الله في كتابه الكريم الخالد.

علىٰ كل حال: هذه الصفات المذكورة: فضل من الله، حيث يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ألا فليتعرض لفضل الله مَن يبتغيه!! ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع الفضل، عليم بمن يستحقه.

وبعد أن ذكر الله تعالىٰ مَن يجب عدم موالاتهم، يذكر ـ تبارك وتعالىٰ ـ مَن تجب موالاتهم، حيث يقول للمؤمنين:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

**ومعنىٰ الآية**: أنه إذا كنت نهيتكم عن موالاة اليهود والنصارىٰ، فإن ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا هو الأصل لا ولِيَّ لكم سواه، ويتَّبِعه في ضرورة موالاتكم له ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المتَّصفون بأنهم ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ وهم خاشعون لله متواضعون له سبحانه، راغبون في الإحسان، مسارعون إليه.

يروىٰ في سبب نزولها: أن عبد الله بن سلام جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إن قومنا قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا.

فنزلت هذه الآية.. فقرأها عليه رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله ربًّا، وبرسوله نبيًّا، وبالمؤمنين أولياء. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

**والمعنى:** أن مَن يمتثل ويتَّبع شرع الله، و﴿يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بإعانتهم، ونصرتهم، والاستنصار بهم، واللجوء إليهم: فهو من حزب الله، وأحبابه، وأوليائه، **إضافة إلى ذلك:** ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بالحجة والبرهان، دائمًا، وأحيانًا بالصولة والسنان، كما غلب حزب الله في غير مرة، في عهد رسول الله ﷺ، وغيره.

ومرة أخرى: ينهى ربنا عن اتخاذ أعداء الله أولياء، فيقول جل جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

**ومعنى الآية:** النهي للمؤمنين عن موالاة الذين يهزءون ويسخرون من الدين الإسلامي ومبادئه وشعائره، ويعتبرونها لعبًا وعبثًا، سواء كان هؤلاء الذين يهزءون من اليهود، أو النصارى، أو الكافرين عامة، من: ملحدين، وشيوعيين، وبوذيين، وهندوس، وغير ذلك.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوا الله يا مؤمنون، واتركوا الولاء لهم ومعهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقًا؛ حيث إن موالاة هؤلاء: تتنافى مع الإيمان الصادق.

هؤلاء: ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ رفعتم الأذان بها، أو قمتم إلى الصلاة، أو دعوتموهم إليها: سخروا منكم و﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ سبب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لو كان لديهم عقل يستعملونه، وفكر ينتفعون به: ما فعلوا ذلك، بل آمنوا وانتفعوا. ثم يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

**والمعنى:** ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ تنكرون منا، وتعيبون علينا شيئًا، ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: إلا

إيماننا بالله تعالىٰ، وإيماننا بالقرآن الذي أنزل علينا، وإيماننا بالكتب التي أنزلت علىٰ الأنبياء السابقين، واعلموا يا أهل الكتاب أن هذا الإنكار علينا في إيماننا ما له من سبب، إلَّا ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله ﷻ، ولذا: لا يلتفت إلىٰ إنكاركم؛ لأن الإيمان لا عيب فيه ولا مذمة عليه.

ثم بيَّن ربنا ﷻ ما هو أشد وأشر من فسقهم، حيث قال:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الفاسقين، الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن﴾ أهل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تنقمون، وتنكرون ..؟ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أبعده من رحمته، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ غضبًا لا يرضىٰ بعده أبدًا، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يُروىٰ أن الذين مُسِخوا قردة: كانوا من اليهود أصحاب السبت، وأن الذين مسخوا خنازير: كانوا من الذين كفروا بعيسىٰ عليه السلام بعد نزول المائدة، ﴿و﴾ مَن ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: أطاع الشيطان، وعبد ما زيَّنه له من العجل، وغير ذلك، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ لأن مكانهم النار ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن طريق الحق، والصراط المستقيم.

ثم يقول الله ﷻ لنبيه ﷺ، عن ذرية هؤلاء اليهود، الذين لعنهم الله، وغضب عليهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

**والمعنىٰ:** إذا جاءك منافقو اليهود ﴿قَالُوا﴾ نفاقًا ﴿آمَنَّا﴾، والحقيقة: أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين، دون أن يؤمنوا صدقًا، لا في دخولهم عليك، ولا في خروجهم من عندك، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ ويُخفون من النفاق.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا﴾ من هؤلاء اليهود، ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي: يبادرون إلىٰ المعصية، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يعني: في الظلم والبغي، مُسارعةً تدل علىٰ تلذذهم بفعل هذه المعاصي، وارتكابهم هذا الظلم.

وكذلك يسارعون في: ﴿أَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ **أي**: الحرام، وبخاصة الرشوة.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بئس العمل عملهم، والأكل للسحت أكلهم، والعدوان عدوانهم، والمعصية معصيتهم.

**هؤلاء يفعلون ذلك**: لأن علماءهم لم ينهوهم عنه.

ولذلك يوبخ الله علماءهم بقوله:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

**والمعنىٰ**: هلَّا نهاهم علماؤهم وفقهاؤهم عن هذه الأشياء التي منها: ارتكابهم الإثم، والعدوان، وأكلهم السحت!! ولكنهم ما فعلوا!! ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من السكوت عنهم، وعدم نهيهم عن هذه الأمور القبيحة.

وفي الآية ـ كما يقول العلماء ـ ذم لعلماء المسلمين علىٰ توانيهم في النهي عن المنكرات. ويقول ابن عباس رضي الله عنه: هذه أشد آية في القرآن علىٰ العلماء.

ويقول الضحاك رحمه الله : ما في القرآن آية أخوف عندي منها.

قال رجل من اليهود لمحمد ﷺ: إن ربك بخيل لا ينفق؟! فأنزل الله تعالىٰ:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

**والمعنىٰ**: قال رجل من اليهود ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ ومع أن القائل لهذا الكلام واحد: إلَّا أن الجميع سكت، ورضي قوله، فكأنهم قالوه جميعًا، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ

﴿ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: بخيلة لا تنفق، وليس المراد: أنها مربوطة، فدعىٰ الله عليهم بالبخل.. فكانوا أبخل الناس، كما أن أيديهم تُغَلّ وتربط في جهنم.

يقول تعالىٰ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وفوق ذلك ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي: عليهم لعنة الله تعالىٰ، بسبب قولهم هذا، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ رد عليهم، وإثبات غاية السخاء له تبارك وتعالىٰ، ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من توسيع علىٰ هذا، وتضييق علىٰ ذلك، دون اعتراض من أحد، أو مقدرة علىٰ منع هذا أو ذاك من أحد. ثم تحدَّث عن علمائهم فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي: وليزيدن القرآن، وما فيه من تشريعات خالدة، وآيات باهرة، كثيرًا منهم، بسبب حسدهم لك، وحقدهم عليك ﴿طُغْيَٰنًا﴾ أي: تماديًا في الجحود لرسالتك ﴿وَكُفْرًا﴾ بك وبما أنزل عليك .

هذا ﴿و﴾ قد ﴿أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ حيث إن كلامهم مختلف، وقلوبهم شتىٰ، ولا يكون بينهم اتفاق ولا تماسك إلَّا ظاهري فقط، وهذا الوضع فيهم، والعداوة بينهم: مستمر ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيلاقون جزاءهم، وينالون عقابهم. وبسبب هذا الوضع من العداوة والبغضاء بينهم، فإنهم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ **أي:** لحرب الله ورسوله، أو لحرب الإسلام وأهله، أو كلما أرادوا إشعال نار الحرب لهذا الغرض، ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: نصر الله رسوله والمسلمين عليهم، أو أطفأ الله كيدهم وشرهم.

**ويلاحظ:** أنه ما غُلِب هؤلاء في عصرنا ـ في بعض المعارك ـ إلَّا لأنهم يحاربون رايات لم تقم علىٰ تقوىٰ، ولم تنتصب لنصر الإسلام، ورفع رايته.

كما أنهم ما غلبوا ـ حينما يغلبون ـ إلَّا بحبل أي: بسبب من الله، وسبب من الناس.

ولأنهم فشلوا، ويفشلون، في ميدان القتال، فإنهم: ﴿يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أرض المسلمين ﴿فَسَادًا﴾، وذلك: بنشر الفاحشة حيث كانوا وحيث استطاعوا، وقَتْلِ أخلاق الشعوب، ومقاومة الخير فيهم، ونشر أفكار الضلال والكفر بينهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولذلك: فإنه لا يحبهم، بل يبغضهم ويلعنهم، ويعاقبهم.

كلمة هادئة ناصحة يقولها رب العزة لليهود والنصارىٰ، علىٰ لسان محمد ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

**ومعنىٰ هاتين الآيتين:** أنه بالنسبة للآخرة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارىٰ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عذاب ربهم: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لسترنا عليهم سيئاتهم التي اقترفوها، ولم نؤاخذهم عليها، ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وتقواهم ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

وأما بالنسبة للدنيا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يعني: عملوا بأحكامهما، وطبَّقوا حدودهما، ولم يحرِّفوهما، وينكرون ما فيهما من وصف محمد ﷺ، والبشارة به، وكذلك: أقاموا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من الكتب، ومنها القرآن الكريم، ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لوسَّع الله عليهم خير الدارين، دون خوف، أو هَمٍّ، أو ضيق نفسي.

فهل فعلوا ذلك؟ يعني: هل ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾، و﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من الكتب؟ الواقع يقول: لا، حيث كان ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ﴾ عادلة، مؤمنة، صالحة، ولكنها قليلة، كعبد الله من سلام، وأمثاله، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس العمل الذي كانوا يعملون، وهو كفرهم.

بعد أن بيَّنت الآيات الفائتة ضرورة الاحتكام إلىٰ ما أنزل الله، وأوجبت ـ كذلك ـ الاحتكام إلىٰ القرآن الكريم، ثم بيَّنت آثار بركة ذلك علىٰ الحياة في الدنيا وفي الآخرة، تأتي الآيات التالية آمرة محمدًا ﷺ ببلاغ ما أنزل الله، وخاصة بلاغه لأهل الكتاب، حيث يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** يا محمد، يا رسولي بلِّغ إلىٰ الناس كلهم، جميع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ غير مراقب في هذا التبليغ أحدًا، ولا خائف أن ينالك مكروه من أحد، ﴿وَإِن

﴿لَّمْ تَفْعَلْ﴾ وتبلِّغ جميع ما أنزل إليك، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ لأن كتمان البعض، ككتمان الكل. ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أن يقتلوك.

وهذا: لا ينافي أن يصيبه منهم مكروه، أو أذى كما حدث في أُحُد، حينما كُسِرت رباعيته ﷺ، وشُجَّ في وجهه، وقد غيَّرت هذه الآية بعض سلوك النبي ﷺ حيث كان يحرسه بعض أصحابه، خوفًا عليه.

فلما نزلت: قال ﷺ: **«انصرفوا عني، فقد عصمني الله»** وصار ﷺ بلا حراسة.

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: إلىٰ ما يريدون بك من الإضرار، ولا إلىٰ مَن كتب عليه الضلال إلىٰ الهداية.

وقد امتثل النبي ﷺ لهذا الأمر بالبلاغ، وقام به أتم قيام.

وفي سياق الأمر بالتبليغ يقول ربنا ﷻ للنبي ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارىٰ: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من الدين يعتد به، ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بالإيمان بكل ما فيهما، والعمل بكل ما فيهما، ومن ذلك: الإيمان بمحمد ﷺ، كما بَشَّر به كل منهما، وكذلك: الإيمان والعمل بما: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعدهما، وهو القرآن، الكتاب السماوي، الخالد، الخاتم.

واعلم يا محمد أنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ بسبب حقدهم عليك وحسدهم لك، كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا تماديًا وعنادًا وكفرًا، ولأنك تريد لهم الهداية، ومنهم الإيمان، وتحزن من أجلهم أقول لك: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تحزن ولا تأسف إن لم يؤمنوا بك، فإن ضررهم علىٰ أنفسهم لا عليك. وفي قاعدة عامة يقول ربنا سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

**والمعنىٰ:** كل فرقة من: المؤمنين، واليهود، والصابئين، والنصارىٰ اتصفت بهذه الصفات الثلاث، وهي: الإيمان بالله تعالىٰ، وباليوم الآخر يوم الجزاء يوم الدين، وعملت عملًا صالحًا، ومن المعلوم: أنه لا يكون ذلك كذلك حتىٰ يكون موافقًا لشريعة محمد ﷺ، بعد أن أرسل صاحبها إلىٰ جميع الثَّقَلين من الإنس والجن، يعني: أصبحوا مسلمين.

في هذه الحالة كل فرقة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما هو آت، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فات.

والصابئون قيل: هم قوم كانوا يؤمنون بالنبيِّين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يومًا إلىٰ آخره، وقيل فيهم: غير ذلك. ويذكر الله اليهود وحدهم بقوله:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

**والمعنىٰ:** يبيِّن الله تعالىٰ أنه أخذ العهود والمواثيق علىٰ بني إسرائيل بالسمع والطاعة لله ولرسله، كما أنه ﷻ أرسل إليهم رُسُلًا يعلِّمونهم شرائع ربهم، وأحكامه، وكان في هذا الكفاية ـ كل الكفاية ـ أن يؤمنوا، وأن يقولوا سمعنا وأطعنا، ولكنهم كانوا: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ من هؤلاء الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ ولا يرغبون فيه ولا العمل به من الشرائع: لم يؤمنوا، ولم يفعلوا ما أُمِروا به، بل كانوا: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ أنبياءهم، وأنكروا ما جاءوا به أنه من عند الله، ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ **أي:** زاد علىٰ التكذيب القتل، كمن قتلوا زكريا ويحيىٰ عليهما السلام.

والعجيب أنَّهم ظنُّوا أن لا يصيبهم من الله عذاب، بسبب هذا التكذيب، وهذا القتل، للأنبياء، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

يعني: ظنُّوا أن لا يكون بلاء لهم، وعذاب بهم، والسبب في ذلك الظن السيئ أنهم: ﴿عَمُوا﴾ عن الرشد أعينهم ﴿وَصَمُّوا﴾ عن الوعظ آذانهم.

ولذلك: لم يعملوا بما رأوا من الآيات، ولا بما سمعوا من المواعظ، ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رزقهم التوبة، فتابوا، ولكنهم بعد فترة، ولخسة طبعهم ﴿عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: صارت غالبيتهم عميًا وصمًا، فلم يعد ينفع فيهم شيء.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بصير بأعمالهم ومواقفهم وعنادهم، وسيجازيهم على ذلك كله. ثم يذكر الله تعالى النصارىٰ، وحدهم بقوله عز وجل:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، وهي من فرق النصارىٰ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: إن مريم عليها السلام، ولدت إلٰهًا، ومعنىٰ هذا عندهم ـ كما يقول أبو السعود رحمه الله ـ أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسىٰ، واتحد بها.

﴿و﴾ قد ﴿قَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ بنفسه لهم مكذِّبًا مزاعم مَن يدَّعي ألوهيته عليه السلام، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ولم يفرِّق بينه وبينهم في أنه عبد مربوب لله؛ ليكون ذلك حجة علىٰ النصارىٰ أيضًا، وكل مَن يزعمون ألوهيته، يا بني إسرائيل ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ في عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الموحِّدين، ومنعه من أن يدخلها ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ أي: صار مأواه ومسكنه ومرجعه النار، التي هي دار الكافرين المشركين، وساعتها ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمنعونهم من دخول النار، أو يدفعون عنهم عذابها، أو يخرجونهم منها. ثم يقول تعالىٰ أيضًا:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ من طوائف النصارىٰ، وهم:

النسطورية، والمرقوسية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ أي: ثالث آلهة ثلاثة، هو: أحدها، والآخران: عيسىٰ وأمه عليهما السلام، وهذا تفسير لقضية الثليث عند النصارىٰ.

وهناك تفسير آخر: هو أن النصارى يقولون: إن الإله.. جوهر واحد، مركب من ثلاثة أقانيم: الأب، والإبن، وروح القدس.

وهذه الثلاثة: إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص، والشعاع، والحرارة.

وهم يقصدون بالأب: الذات، وبالإبن: الكلمة، أي: كلام الله، وبالروح: الحياة.

وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسىٰ، اختلاط الماء باللبن.

وزعموا: أن الأب إله، والإبن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

**والحقيقة:** ما يقوله الله تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ نفسه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: وما من إله قط في الوجود، إلَّا إله موصوف بالوحدانية، لا ثاني له ولا ثالث، وهو الله وحده، لا شريك له.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من هذه الافتراءات والأكاذيب، ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: ليمسنَّ المصرِّين علىٰ الكفر منهم، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم شديد الإيلام.

ويلاحظ: أن الله تعالىٰ لم يقل: (ليمسنهم) بل قال: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ لأن منهم مَن أسلم قبلًا، ومنهم مَن يسلمون الآن إلىٰ يوم الدين. ثم يقول تعالىٰ:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿أَفَلَا﴾ ينتهون عن تلك العقائد الفاسدة، والمزاعم الباطلة، و﴿يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ويرجعون عنها، ويتخلَّصون من أوزارها ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ أي: يطلبون منه المغفرة علىٰ اعتقادهم فيها، وتمسكهم بها.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يقبل توبتهم، ويغفر لهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، يدخلهم في رحمته وعفوه. والحقيقة التي لا محيد عنها، في شأن المسيح وأمه ما يقوله رب العزة:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

**والمعنى:** ليس ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فهو يمضي وينتهي مثلهم، وليس بإله كما يزعم الزاعمون، وإلَّا لبقي خالدًا أبدًا، ولم يمض كما مضى الذين سبقوه من البشر، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: وما أمه ـ أيضًا ـ إلَّا كسائر النساء، اللاتي يوصفن بالصدق لملازمتهن له، ولهذا فما رتبتهما ـ المسيح وأمه ـ إلَّا رتبة بَشَرَيْن أحدهما نبي، والآخر صحابي، فمن أين لكم بهذه الألوهية المزعومة، خاصة وأنهما: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كغيرهما من البشر، ومَن كان كذلك: لا يكون إلهًا أبدًا، لتركيبه وضعفه، وما ينشأ منه من البول والغائط.

﴿ٱنظُرْ﴾ وتعجَّب، ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والدلائل، على وحدانيتنا، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ﴾ للأعجب منه ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق مع قيام البرهان، ووضوح البيِّنات عليه.

وبعد هذا التعجُّب من أحوالهم، يأمر ربنا ﷻ محمدًا ﷺ: بتبكتهم وتوبيخهم، حيث يقول له:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

**والمعنى:** ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد لم ﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **أي:** غيره ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ وهو عيسى عليه السلام؟ يا هؤلاء ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ غير الله، والحال أن الله سبحانه، هو المستحق للعبادة؛ لأنه يسمع كل شيء، ومن ذلك أقوالكم، ويعلم كل حال، ومن ذلك أحوالكم، إن كنتم تعقلون: كفوا عن ذلك.

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن المبالغة والغُلُوّ، اقتداءً بشيوخهم في الضلال، فيقول له:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

**والمعنى:** ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى، ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ فقد تجاوزوا الحد في شأن عيسى عليه السلام.. حيث وضعه

اليهود عن مقام النبوة، ورفعه النصارىٰ إلىٰ مقام الألوهية، وهذا غلو غير الحق، وهو باطل.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارىٰ ﴿لَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ بغلوِّهم وهم أجدادكم ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ من الناس أتوا من بعدهم، ولا يزالون في ضلالهم ﴿وَضَلُّواْ﴾ أي: هؤلاء الأجداد، ومَن تبع أهواءهم ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ حين كذَّبوا - ولا يزال أتباعهم - رسول الله ﷺ؛ حسدًا وبغيًا.

ويخبر ربنا - تبارك وتعالىٰ - أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من زمن بعيد، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾

**والمعنىٰ:** ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ من اليهود والنصارىٰ، وكان ذلك: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ الذي لعن اليهود، بأن دعا عليهم، فمُسِخوا قردة، وهم أصحاب السبت - وستأتي قصتهم في «الأعراف» - وأيضًا: علىٰ لسان ﴿عِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ الذي لعن النصارىٰ، بأن دعا عليهم، فمُسِخوا خنازير، وهم أصحاب المائدة - وستأتي قصتهم في «آخر السورة» - ، وكان هذا اللعن، وتلك الإجابة ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ أي: بسبب عصيانهم أوامر الله، واعتداءاتهم علىٰ أنبياء الله .

كما أنهم:

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾

**يعني:** وكان هذا اللعن ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: ٧٨] بسبب أنهم كانوا لا ينهىٰ بعضهم بعضًا عن فعل المنكر، ولا عن معاودة فعله، وهذا فعل بئيس سيئ كانوا يفعلونه، ولا أبأس ولا أسوأ منه.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: وفي ذلك دليل علىٰ أن ترك النهي عن المنكر من عظائم الأمور.

ثم أخبر رب العزة نبيه ﷺ عن بعض سوءاتهم، ونتائجها السيئة عليهم بقوله عز وجل:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب، اليهود والنصارىٰ ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ أي: يوالون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من الملاحدة، والشيوعيين، وغيرهم، ويتركون موالاة المؤمنين، أهل الكتاب السماوي الخاتم.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ إن كانوا يريدون لها خيرًا، حيث إن هذا الذي قدمته لهم أنفسهم: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما يوجب سخط الله عليهم، بسبب موالاتهم للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين، وكذلك ﴿فِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: في نار جهنم، هم ماكثون وباقون أبدًا، لا يستريحون فيها، ولا يخرجون منها. ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

**والمعنىٰ:** ولو كان هؤلاء المنافقون من اليهود والنصارىٰ يؤمنون حقًّا بالله تعالىٰ ﴿وَٱلنَّبِىِّ﴾ جنس النبي، ويشمل موسى وعيسىٰ ومحمد صلّىٰ الله عليهم جميعًا، ويؤمنون بـ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ كل نبي بما في ذلك القرآن ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله، ولذلك: لم يؤمنوا بالله، ولا بالنبي، ولا بما أنزل الله، واتخذوا الكفار ـ لأنهم علىٰ شاكلتهم ـ أولياء.

بعد ذكر أهل الكفر من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، وكفر هؤلاء وهؤلاء: يخبر الله تعالىٰ عن مدىٰ عداوة هؤلاء وهؤلاء للمسلمين، فيقول جل جلاله:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يا محمد ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ

﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ لأن كفر اليهود والمشركين: كفر عناد وجحود، ومباهاة للحق، وغمط للناس، وتنقُّص لحملة العلم.

ولذلك: قتلوا كثيرًا من الأنبياء، حتىٰ همُّوا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسَمُّوه، وسحروه، وألَّبوا عليه أشباههم من المشركين.

**ويلاحظ**: أن الله تعالىٰ جعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين، كما نبَّه علىٰ تقدُّم قدمهم في العداوة بتقديمهم علىٰ المشركين في الذكر بالآية الكريمة، وكان ذلك علىٰ عكس النصارىٰ، الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ من أتباع المسيح عليه السلام، وعلىٰ منهاج إنجيله، وأنصار دين الله، حيث إنَّ فيهم: مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك: إلَّا لما في قلوبهم؛ إذ كانوا علىٰ دين المسيح من الرقة، والرأفة، وبسبب وجود علماء فيهم.

يقول تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ أي: علماء وعُبَّاد، ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: فيهم تواضع واستكانة، علىٰ خلاف اليهود.

ثم يبيِّن القرآن ـ كذلك ـ بعض صفات هؤلاء النصارىٰ، فيقول جل جلاله:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يُروىٰ: أنَّ قومًا كانوا علىٰ دين عيسىٰ ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، وسمعوا القرآن، أسلموا، ولم يتلعثموا، فنزلت هذه الآيات.

**والمعنىٰ**: أن هؤلاء النصارىٰ ـ الذين تتحدث عنهم الآيات ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ وهو القرآن ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ بكاءً وتأثُّرًا؛ لرقة قلوبهم، و﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بعض الحق، الذي سلم من التحريف، أو قبل التحريف لكتبهم، ولذلك: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بمحمد ـ ﷺ ـ، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عرفوا وصف هذه الأمة، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يوم القيامة، فطلبوا أن يجعلهم الله منهم، وأن يكتبهم معهم، مع أمة محمد ﷺ.

وكأنَّ منكِرًا ينكر عليهم إيمانهم هذا!! فيقولون:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

**أي**: وما المانع لنا: في أن نؤمن بالله الواحد، بعد أن ظهر الحق الناصع بنزول القرآن، وأن نطمع في ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين.

لهذا يقول رب العزة:

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

**والمعنى**: فكانت النتيجة أن الله تبارك وتعالىٰ يخبرنا عن إكرامه لهم: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ بسبب إيمانهم وتصديقهم، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم، ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ من النصارىٰ، الذين عرفوا الحق، فآمنوا به، واتبعوه.

وحتىٰ لا يفهم أحد أن هذا الثناء، وذلك الجزاء للنصارىٰ جميعًا، فقد عقَّب المولىٰ علىٰ ذلك بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

وهذه الآية: وعيد وتهديد لمن بقي علىٰ كفره بالله من أهل الكتاب وتكذيبه لمحمد ﷺ.. ومعناها: أنه إذا كان المؤمنون المصدِّقون المخلصون منهم، لهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [المائدة: ٨٥] فإن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ منهم هم ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ التي يخلدون فيها.

كان الكلام ابتداءً من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] منصبًّا علىٰ تبليغ الكافرين، ومن هنا يبدأ الكلام في تبليغ المؤمنين، بطريقة فيها كثير من التفصيل لمَا هو مجمل في أول السورة، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾

**والمعنى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ما لذَّ وطاب من الحلال، الذي أحلَّه الله لكم، مبالغة منكم وزهدًا وتقشُّفًا.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ أي: لا تتجاوزوا حدود ما أحلَّ الله لكم، وما حرَّم عليكم، سواء بتحريم، أو تحليل، أو إسراف، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين حدوده.

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

**والمعنى:** تمتعوا بأنواع الرزق، الحلال الطيب، سواء كان أكلًا أو غيره.

ويلاحظ: أنه تعالى خصَّ الأكل بالذكر؛ لأن أغلب الانتفاع بالرزق يكون أكلًا.

كما يلاحظ: أن المولى سبحانه نهى عن تحريم الطيبات في الآية السابقة، ثم أمر بالأكل منها، والانتفاع بها هنا.

ثم يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بالوقوف عند شرعه، فيما أحلَّ، وفيما حرَّم ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: فاتقوه، وإن كنتم تتقونه، فالتزموا بشرعه، في الحلال، وفي الحرام.

ولأن التحريم لما أحلَّ الله وأباح من الطيبات يكون باليمين عادة. فناسب أن يذكر حكم الأيمان هنا بقوله عز وجل:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

وسبب نزولها: أنهم كانوا يحلفون على تحريم الطيبات، ويظنُّون أنه قربة إلى الله، فلما نزل النهي عن تحريم الطيبات: قالوا كيف بأيماننا، التي كنا نحلفها، فنزلت ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

واليمين اللغو هو: ما يجري على اللسان من غير قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، كما يرى الإمام الشافعي رحمه الله.

أو ما يحلف المرء عليه ظانًّا أنه كذلك، وهو خلاف ما يرى، عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

وحكمه: كما بيَّنته الآية: لا شيء فيه، ولا ذنب عليه، وإن كان الكفُّ عنه أولىٰ وأولىٰ. وهذا هو **النوع الأول** ـ من الأيمان ـ الذي ذكرته الآية.

**والنوع الثاني**: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي: الأيمان التي تعقدونها وتؤكِّدونها بالقصد والنية.

وحكم هذه إذا حنثتم فيها، أو أردتم الحنث فيها، الكفارة التي تستر هذا الخطأ، وتمحو آثاره.

والكفارة لمن حنث، أو أراد الرجوع فيما حلف عليه ما يلي: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ إطعامهم كل واحد منهم طعام يوم كامل مما يطعم منه أهله في المعتاد، بلا تقتير ولا تبذير، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وأدنىٰ الكسوة: ثوب يواري العورة.

ونرىٰ أنه: يجب أن يكون مما يناسب حاله، ويقيه الحر والبرد.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة، مؤمنة، أو غير مؤمنة علىٰ خلاف بين الأئمة.

والحانث في يمينه، أو الذي يريد الحنث في يمينه: مخيَّر بين واحدة من هذه الثلاث.

**ويلاحظ**: أن المولىٰ بدأ في هذه الثلاث بالأسهل، ثم ترقَّى إلىٰ الأصعب منها، لمن يرجو الأجر من الله تعالىٰ، فإن لم يجد الحانث، أو لم يقدر علىٰ واحدة من هذه الثلاث ماذا يفعل؟

يقول تعالىٰ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات، أو غير متتابعات، علىٰ خلاف بين الأئمة، ولكن النص القرآني ـ كما هو واضح ـ لم يقيِّد لا بهذا ولا بذاك، وعلىٰ هذا يجزئ التتابع في الصيام، وعدمه كذلك، هذا الكلام عن الكفارة، والكفارة ذاتها لا تكون إلَّا بعد الحنث في اليمين.

يقول تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر عن الكفارة لليمين المنعقدة، ﴿كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أي: هو كفارة الحنث في أيمانكم التي حلفتموها، وحنثتم فيها.

والأفضل لكم ما يقوله المولىٰ: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ بعدم الحلف أصلًا، أو بنفاذ اليمين إن كان الحلف علىٰ خير، أو بالتكفير عن الحنث فيها إن كان في الحنث فيها خير، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علىٰ ذلك البيان ربكم سبحانه وتعالىٰ.

لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧].

وكذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨].

وكانت الخمر والميسر ممَّا يُستطاب عندهم، فقد بيَّن رب العزة أنهما غير داخلين في جملة الطيبات التي أحلها الله تعالىٰ، وذلك في قوله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذه الأشياء الأربعة محرَّمة؛ لأنها من الأمور القبيحة التي يزيِّنها الشيطان للإنسان، وهي: ﴿ٱلْخَمْرُ﴾ أي: كل مُسْكِر يُخامِر العقل ويغطِّيه عن الوعي، ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ أي: القمار، وهو اللعب بما يلهي، وسُمِّيَ القمار ميسرًا؛ لأن فيه أخذ المال بيسر، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي: الأصنام، التي تنصب وتُقام، وتُعبد، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ أي: القداح، التي كانوا يستفتحون بها أعمالهم وتجاراتهم وسفرياتهم، وكانوا يلتزمون بتوجيهها الأعمى، وما دام ذلك ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وما دام محرَّمًا ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

ويلاحظ في الآية الكريمة: أن الله ﷻ ضمَّ في التحريم إلىٰ الخمر والميسر، الأنصاب والأزلام، مع أن المؤمنين يعلمون حرمة ذلك جيدًا، ولا يفعلونه؛ حيث إنه تعالىٰ يؤكِّد بذلك حرمة الخمر والميسر، بطريق أشدّ وأوضح.

ثم يبيِّن ربنا جل وعلا: ما في الخمر والميسر من المفاسد الدنيوية والدينية، بقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾؟

في هذه الآية: يبيِّن المولى ﷻ بعضًا من حِكمة التحريم للخمر والميسر، بعد أن حرَّمهما، وأكَّد هذا التحريم، إذْ يبيِّن مراد الشيطان من دعوته لنا إلىٰ الخمر والميسر، وهو: إيقاع العداوة والبغضاء بيننا أفراد أو جماعات.

وكذلك: الصد لنا ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

ومن الطبيعي أنه: حيثما وجد الخمر: كان العداء والشر، وحيثما وجد القمار: كانت الشحناء والبغضاء.

وإنما يريد الله لحزبه أن يكونوا متحابِّين؛ ولذلك حرَّم الخمر والميسر.

كما أنه: حيثما وجد الخمار والقمار: كانت الغفلة عن الله، والله يريد منا أن نكون من الذاكرين لا الغافلين؛ ولذلك حرَّم الخمر والميسر.

لكل هذا يحضنا رب العزة بعد أن أظهر لنا الحكمة من التحريم.. على الانتهاء، بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ عن إتيانها، أي: انتهوا.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

**والمعنى**: يا أيها الذين آمنوا ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر به، وفيما نهى عنه، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما بلَّغه عن ربه، ولا تخالفوه ﴿وَٱحْذَرُواْ ۚ﴾ معصية الله، ومخالفة نبيِّه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم، وعصيتم، وخالفتم، فجزاؤكم علينا، لا على الرسول، ألا ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فقط.

لمَّا نزل تحريم الخمر والميسر، في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] الآية.

قال الصحابة: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون مال الميسر، أي: قبل تحريمهما، فنزل قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

**ومعنى الآية**: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم، ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أي: قبل نزول تحريم الخمر والميسر.

وذلك الرفع للإثم عنهم يكون: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: تجنبوا الشرك، وآمنوا بالله، وعملوا الصالحات بعد هذا الإيمان؛ مرضاة لله تعالى، وهذه درجة: تكون بينهم وبين أنفسهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ أي: تجنَّبوا الشبهات، تحرُّزًا للنفس عن الوقوع في الحرام، وازدادوا ثقة ويقينًا واطمئنانًا، وظهر ذلك علىٰ سلوكهم وتعاملاتهم، وهذه درجة: تكون بينهم وبين الناس.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ أي: تجنَّبوا بعض المباحات؛ تحفُّظًا للنفس، وترفُّعًا بها عن دنس الطبيعة، وعبدوا الله تعالى، كأنهم يرونه، أو كأنه يراهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يثيبهم ويحسن إليهم.

بعد أن قررت السورة في أولها حرمة الصيد للمحرم بالحج أو العمرة، أو بهما، بيَّنت مَن يلتزم بهذا الحكم، ومَن لا يلتزم به، وجزاء هذا وذاك، بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ليختبركم وأنتم محرمون، ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ الذي حُرِّم عليكم صيده حال إحرامكم، فيه الصغير ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ دون مشقة، وفيه الكبير تناله ﴿رِمَاحُكُمْ﴾ بشيء من الجهد اليسير، وكان هذا الاختبار ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليظهر للخلق، ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: مَن يخافه ويراقبه حتىٰ في خلوته، ممن لا يخافه ولا يلتزم بأحكامه، ويعتدي علىٰ شرعه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ علىٰ أحكام الله وشرعه، ﴿بَعْدَ﴾ وضوح ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهي عمَّا حرَّم الله. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم ينهىٰ ربنا ﷻ عن قتل الصيد للمحرم، مع بيان الجزاء، الذي يزيل الاعتداء المؤدى إلىٰ العذاب الأليم، كما أشارت إليه الآية السابقة. يقول الله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ﴾ أي: لا تذبحوه مُحرِمون بحج أو عمرة، أو بهما معًا.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ حتىٰ ولو ذبحه، فهو ميتة؛ لأن المُحرِم ممنوع من صيده أولًا، ومن ذبحه ثانيًا، فهو: مخطئ، وعليه الجزاء، الذي يوضِّحه قوله تعالىٰ: ﴿فَجَزَآءٌ﴾ وهذا الجزاء: ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: عليه أن يهدي من النِّعم، أي: الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم مثل ما قتل؛ يحكم بهذه المثلية ذوا عدل منكم، علىٰ أن يصل هذا الهدي إلىٰ الحرم، فيذبح فيه، ويتصدَّق به علىٰ مساكين الحرم، ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ من طَعَامِ ﴿مَسَٰكِينَ﴾، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصوم عن كل مسكين يومًا، وهو مخيَّر بين هذه الثلاثة، وكان ذلك الجزاء، ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: ليذوق ضرر وعاقبة هتكه لحرمة الإحرام، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ مما كنتم تصطادونه قبل هذا الحكم بالتحريم.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ الصيد حال الإحرام ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ لارتكابه هذا المحرَّم، ومخالفته للنهي الإلهي.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن يتجاوز حدود الإسلام.

وبعد هذا البيان لقتل الصيد في الإحرام، وحكم ذلك، يأتي البيان لصيد البحر، وصيد البر، وحكمهما في قوله تعالىٰ:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

**والمعنىٰ**: صيد البحر حلال لكم محرمين وغير محرمين، وكذلك طعام البحر الذي يقذفه من حيواناته، ولو ميتًا حلال، وهو متاع لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: المسافرين.

وأما صيد البر.. فهو حرام عليكم ما دمتم محرمين، وهو حلال لغير المحرم.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في صيد البحر أن تحرِّموه في الإحرام، وهو حلال، وفي صيد البر أن تصطادوه في الإحرام ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

وبمناسبة الكلام عن المحرم والصيد وبعض أحكامهم، يذكر سبحانه وتعالىٰ ويبيِّن الحكمة في جعل: الكعبة، والشهر الحرام، والهدي، والقلائد من شعائره ﷻ، فيقول:

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ

وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

في الآية الكريمة: بيان للحكمة من جعل هذه الأشياء الأربعة المذكورة من شعائر الله وهي أمران:

**الأول:** ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: انتعاشًا لهم في أمر دينهم، ونهوضهم إلىٰ مصالح دنياهم.

**الثاني:** ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لتزدادوا علمًا بالله، ومالكيته للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، وعلمًا بأنه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك من خلال ممارسة شعائر الحج.

وعلىٰ هذا فمعنى الآية: أن الله خلق الكعبة، التي هي البيت الحرام، انتعاشًا للناس في أمر دينهم ودنياهم، بما يتم لهم خلال حجهم وعمرتهم.

وكذلك: جعل الشهر الحرام وهو: ذو الحجة فقط؛ لاختصاصه بإقامة الحج فيه، أو أنه: جنس الأشهر الحُرُم، فيكون المراد: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وكذلك: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ أي: ما يهدى إلىٰ مكة.

﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي البُدُن التي تُعلَّم بقلادة أو غيرها، وهي وإن كانت من الهدي إلَّا أنها أخص بالذكر؛ لأن الثواب فيها أكثر، والمهابة معها أظهر.

كل ﴿ذَٰلِكَ﴾ كان ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولذلك: يحكم ويأمر ويمنع ويحلِّل ويحرِّم بعلم وحكمة.

ثم يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها الناس، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأعدائه، ولمن خالف أحكامه، وعاند رسله، وكذب بآياته.

﴿و﴾ اعلموا كذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور لأوليائه، رحيم بهم.

وبالتالي: فهو شديد العقاب.. لمن استخف بالحرم والإحرام وأحكامهما، وهو غفور رحيم لمن عظَّم المشاعر الحرام. هذه هي الأحكام، و:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

**والمعنى:** نحن الذين نشرِّع، ونحلِّل ونحرِّم، و﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ فقط، ونحن نكافئ بعد ذلك كل إنسان بما يستحق.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا يخفى عليه صدقكم من نفاقكم، وامتثالكم من امتناعكم.

وفي ذلك: تشديد لوجوب الامتثال لشرع الله، وتهديد من مخالفته.

ولمَّا ذكر سبحانه أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون علم بالضرورة أنه لا يستوي عنده الخبيث والطيب، ولذلك قال لحبيبه ﷺ:

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

**والمعنى:** ﴿قُل﴾ يا محمد لكفار مكة وعصرك، وقل أنت وأتباعك من المؤمنين للدنيا كلها في كل عصورها: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ عند الله في الثواب والحب منه أبدًا، بل يميِّز بينهما، فيعاقب الخبيث الكافر، ويثيب الطيب المسلم، كما لا يستوي عنده كذلك: الحلال والحرام، ولا الصالح من العمل مع الطالح، وهكذا.

حتى، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ مالًا، أو رجالًا، أو أعمالًا.

لذلك: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في ترك الخبيث، ولو أعجبكم، وسرتكم وبهرتكم كثرته، وإيثار الطيب عليه والفضيلة وإن قلَّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون في الدنيا والآخرة برضوان الله تعالى.

ولأن الصحابة رضوان الله عليهم: كانوا يسألون النبي ﷺ في كل شيء، ولأنه ﷺ كان يجيبهم بما يوحيه إليه ربه، ويعلِّمه إياه فقد أكثروا عليه ﷺ في السؤال، حتى عن أمور لا تعنيهم، أو عن أمور يشق عليهم الإلتزام بها لو فرضت عليهم.

ولما أكثروا ذلك: نزل قوله تعالى تأديبًا لهم، ورحمة بهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

**والمعنى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ لا تعنيكم، أو تشق عليكم، مثل: هل فرض الحج علينا في كل عام؟ حيث إنها ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي:

تُجابون عنها، وتكلِّفون بها ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ أي: تغمُّكم؛ لمَا فيها من المشقة عليكم، خاصة وأنه: ﴿إِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ تؤمرون بتحمُّلها، وقد يكون فيها من المشقة ما يجعلكم تفرِّطون في القيام بها، وبذلك تعرِّضون أنفسكم لغضب الله تعالىٰ، وهي بالضرورة، ونتيجة سؤالكم، سـ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ ويبيِّن الحكم فيها. لذلك: فلا تسألوا عن هذه الأشياء التي لا تعنيكم، والتي يسيؤكم بيان الحكم فيها، والتكليف بها،

وأما أسئلتكم التي سبقت نزول هذه الآية: فقد ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ فلا تعودوا لمثلها بعد ذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاقب إلَّا بعد الإنذار، وعدم الاستجابة.

هذه التساؤلات:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

**والمعنىٰ**: أن هذه الأسئلة التي لا تعني المرء الإجابة عليها، وقد يشق عليه التكليف بها: فقد سأل مثلها أناس غيركم عن أمم سابقة، مثل: سؤال الناقة من قوم صالح، وسؤال المائدة من قوم عيسىٰ، وسؤال رؤية الله جهرة من قوم موسىٰ...

كما كان بنو إسرائيل يسألون أنبياءهم في أشياء، فإذا كُلِّفوها، وأُمِروا بها تركوها، ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟﴾ أي: صاروا، بعدم الإيمان بعد إجابتهم، أو بترك العمل بعد تكليفهم به ﴿كَـٰفِرِينَ﴾، فلا تكونوا مثلهم.

بعد ذلك: يبيِّن الله ﷻ الصواب في بعض الأمور التي ابتدعتها الجاهلية، فيقول تعالى:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

**والمعنىٰ**: لم يشرِّع ربنا ﷻ هذه الأشياء المذكورة في الآية، ولكن علماءهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ حيث يشرِّعون هم، ويقولون: أمر الله بهذا، وحرَّم الله هذا.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: عوامهم، وأراذلهم، الذين يتَّبعونهم من معاصري رسول الله ﷺ يتَّبعونهم، ويقلِّدونهم، دون محاولة للاهتداء إلىٰ الحق، وذلك لأنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا عقل عندهم لغبائهم، أو لا يستعملون عقولهم لمعرفة الصواب من الخطأ.

وهذه الأشياء، التي شرَّعوها هم، ولم يشرِّعها رب العزة هي:

البحيرة وهي: الناقة، التي تلد خمسة بطون، في آخرها ذكر، وحكم هذه عند أهل الجاهلية: أنها تُشَقُّ أذنها، وتُترك، فلا تُركب، ولا تُحلب، ولا تُطرد عن مرعىٰ ولا ماء، وإذا لقيها الضعيف لم يركبها.

والسائبة وهي: البعير الذي يسيِّبه الرجل إذا قدم من سفر، أو شُفِي من مرض ويتركه حرًّا، لا يركب، ولا ...، ولا ... مثل البحيرة.

والوصيلة وهي: الشاة، التي تلد سبعة بطون، فإذا قيل: وصلت أخاها، فجرت مجرىٰ السائبة.

والحام هو: الفحل، إذا نتج من صلبه عشرة بطون، قالوا: قد حمىٰ ظهره، فلا يُركب، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء، ولا مرعىٰ.

هؤلاء الجاهليون:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

**والمعنىٰ:** هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: هَلُمُّوا إلىٰ حكم الله ورسوله، من تحليل ما حرَّمتم من هذه الأشياء، ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا﴾ يكفينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ﴾ من الدين، والشريعة، والعادة.

يرد الله عليهم بقوله: أيكفيهم هذا، وينفعهم، حتىٰ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ عن الحلال والحرام ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الحق بأنفسهم، من غير وحي السماء، أصلًا؟ وذلك: من باب الإنكار عليهم موقفهم.

وحتىٰ لا يتأثَّر أحد بهؤلاء الكفار الجاهليين، الذين لا يقبلون شرع الله، بل ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٣]، يطالب ربنا أولياءه بالاهتمام الشديد بإصلاح أنفسهم، وعدم التأثر بالفاسدين ممن حولهم، قائلًا جل جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يُروىٰ في سبب نزول هذه الآية أنه: كما كان المؤمنون يتحسَّرون علىٰ عدم إيمان

الكفرة، وكانوا يتمنون إيمانهم، وهم على ما هم عليه من الضلال، والتقليد والعناد، فنزلت الآية

ومعناها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: احفظوها، وقوموا بإصلاحها، وتزكيتها.

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ ممن أمرتموه بالمعروف، ونهيتموه عن المنكر، فلم يستجب لكم، وذلك: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ أنتم.

ولا تبتئسوا من أجلهم، حيث إنه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ جميعًا، فيجازي كل فريق منكم بما يستحق من العقاب للعاصي، والثواب للمطيع.

**ويلاحظ:** أن هذه الآية ليست نازلة للرخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل جاء عن أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال: تعدُّونها رخصة؟ والله ما نزلت آية أشد منها، وإنما المراد: لا يضرُّكم مَن ضل إذا اهتديتم.

ولذلك: لا ينبغي أن يتوَّهم متوهِّم أن هذه الآية، رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع استطاعتهما.

فقد رُوي أن الصديق رضي الله عنه، قال يومًا على المنبر: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها، ولا تدرون ما هي ..؟!! وإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«إن الناس إذا رأوا منكرًا، فلم يغيروه، عمّهم الله بعقاب، فأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تغترُّوا بقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ فيقول أحدكم: عليَّ نفسي، والله: لتأمُرنَّ بالمعروف، وتنهُونَّ عن المنكر، أو ليستعملنَّ الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خيارُكم فلا يستجاب لهم»**.

ومن الأحكام الإسلامية الرائعة، التي تنفرد بها سورة المائدة، ما ورد في الآية التالية في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قال العلماء: هذه الآية، والآيتان بعدها: من أصعب وأشكل أي: القرآن.. حكمًا، وإعرابًا، وتفسيرًا.

هذه الآية: في وصية المرء، حال الاحتضار بالموت، خلال السفر وهنا:

**أولًا:** عليه أن يُشهد على هذه الوصية.

**ثانيًا:** أن يكون الشهود عليها اثنين من المسلمين العدول، فإن لم يوجد من المسلمين فاثنان آخران من الموجودين ساعة الاحتضار، وحين الوصية، ولو كانا من غير المسلمين.

**ثالثًا:** كيفية الشهادة.

تقبل شهادتهما على هذه الوصية إذا لم يوجد شك، أو طعن من الورثة المستحقين للتركة في شهادتهما، فإذا حدث شك أو طعن.

فما العمل الذي ترشد إليه الآية؟ ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: توقفونهما بعد الصلاة ـ العصر، أو الظهر، أو أي: صلاة، على خلاف في ذلك، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على صحة هذه الوصية، وأنهما ـ في الوقت ذاته، وبالقسم نفسه ـ لا يشتريان بشهادتهما هذه، أي لا يأخذان في مقابلها عوضًا من متاع الدنيا الفاني الزائل، من أَيِّ أحد له مصلحة في ذلك، كما أنهما: لا يحابيان قريبًا بهذه الشهادة، ممن له مصلحة في ذلك، كما أنهما: لا يكتمان الشهادة، وأنهما ـ أخيرًا ـ إن فعلا ذلك كله، أو شيئًا من ذلك، كأخذ عوض، أو محاباة قريب، أو كتمان شهادة: فهما من الآثمين، المستحقين لعقاب الله.

وبهذا بيان حكم وصية الميت خلال السفر والشهادة عليها. ثم قال تعالى:

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

**ومعنى الآية:** أنه بعد تمام الوصية، والشهادة عليه، كما في الآية السابقة: تنتهي الأمور على خير وجه لكن: إن ظهر وتأكد ﴿أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين، ارتكبا مخالفة، و﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بأن: أخذا عوضًا على شهادتهما، أو كانت هناك محاباة لقريب، أو كتما الشهادة، أو لشيء منها.

﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ أي: فاثنان غيرهما، يكونان من الورثة، ﴿يَقُومَانِ﴾ للشهادة

﴿مَقَامَهُمَا﴾، ويكونان ـ كذلك ـ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: أصابهم ضرر الإثم، الذي ارتكبه الشاهدان ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾.

ولكن: كيف يشهدان؟ يجيب رب العزة بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ أن شهادتهما عليهما، بأنهما أخذا عوضًا، أو جاملا قريبهما، أو كتما الشهادة ﴿أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ السابقة، التي أدَّياها أولًا، وأننا ﴿مَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ عليهما ولا علىٰ غيرهما في هذه الشهادة، ولو كان ذلك، أو شيئًا منه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فينتقم الله مِنَّا، بسبب ظلمنا لو كان، ولكن لم نظلم أحدًا.

وهذا الحكم، الذي رسخته هذه الآية: له حكمة بليغة توضحها الآية التالية. في قوله تعالىٰ:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم السابق، وهو رد شهادة مَن حضر وصية الميت خلال السفر، وكانت غير حقيقية، ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب طريق، وأيسر حيلة، ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: أن يؤدي الناس الشهادة علىٰ وجهها الصحيح ابتداء من غير تحريف ولا خيانة، ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟﴾ حين يعلمون هذا الحكم، ويتوقَّعون حدوث ذلك لهم، ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ أي: يُطلب من الورثة المدَّعين، حين الشك والارتياب، أن يحلفوا علىٰ كذب هؤلاء الشهود وخيانتهم، فيحلفون، ويظهر صدقهم، وبذلك: يُفتضح أمر الشهود الأوَل .﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ﴾ التي حلفوها كذبًا وزورًا.

يقول تعالىٰ للجميع: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الخيانة والكذب، ﴿وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ ما تؤمرون به، سماع قبول وامتثال، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته.

وفي ختام السورة يطوى الزمن، ويعرض المولىٰ علينا فيها؛ كيف أنه سيجمع الرسل عليهم السلام، ويسألهم عن إجابات أقوامهم لهم.

وكأن ذلك يشير إلىٰ: أنَّ رسول الله ﷺ قد بلَّغ، وأن علىٰ الناس أن يستجيبوا، وأنَّ الرسول ﷺ شهيد علىٰ هذا الموقف، الذي سيجمع الله فيه الرسل، فيقول عز وجل:

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

**والمعنىٰ:** تذكروا يا مؤمنون، واحذروا، إذْ يجمع الله الرسل يوم القيامة فيقول لهم توبيخًا لمن لم يؤمن بهم، ويتبعهم من أقوامهم ﴿مَّاذَا﴾ أي: ما الذي ﴿أُجِبْتُمْ﴾ حين دعوتم أقوامكم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله؟ ﴿قَالُوا۟﴾ رادّين الأمر إلىٰ علمه سبحانه ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ كل ما غاب عن العباد، وما غاب عنا من باطن الأمور، وأما نحن فلا نعلم إلَّا ما نشاهد. وقد قالوا ذلك: لشدة هول يوم القيامة، وفزعهم، ولكن حينما يسكن حالهم، ويهدأ بالهم: يشهدون علىٰ أممهم.

ومن بين الرسل جميعًا: يخصُّ الله عيسىٰ عليه السلام، بكلام يتقرر فيه صحة ما قال رسول الله ﷺ في شأن عيسىٰ، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ۘ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۖ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

**والمعنىٰ:** ومن هذه الأمور الغيبية، التي أشار إليها الرسل، ولا يعلمها إلَّا الله تعالىٰ، وتحدث في يوم القيامة: ما يقوله ربنا تبارك وتعالىٰ لعيسىٰ عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ يعني: يقول ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث أنبتها الله نباتًا حسنًا، وطهَّرها، واصطفاها علىٰ نساء العالمين.

ثم عدَّد ربنا علىٰ عيسىٰ من نعمه عليه سبعًا:

**الأولىٰ:** ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قويتك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، فكان يسير معه حيث سار، يعينه علىٰ الحوادث التي تقع، ويلهمه المعارف والعلوم، وكنت ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ طفلًا، وتكلِّمهم كذلك بالدعوة ﴿وَكَهْلًا﴾ وتقول لهم: إني عبد الله ورسوله.

**الثانية:** ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ والمراد بـ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتابة، وهي الخط، و﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الفهم والاطلاع.

**الثالثة:** ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصوِّر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: بموافقتي لك على ذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ فتدب فيها الحياة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ حقيقيًا ﴿بِإِذْنِى﴾.

**الرابعة:** ﴿وَتُبْرِئُ﴾ أي: تشفي ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى المطموس البصر ﴿بِإِذْنِى﴾، وتشفي كذلك ﴿ٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾.

**الخامسة:** ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِى﴾.

**السادسة:** ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ أي: صرفت عنك اليهود، ومنعتك منهم، حين أرادوا قتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات الواضحات، والمعجزات الباهرات، على وحدانيتي ونبوَّتك، ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ تبريرًا لمحاولاتهم قتلك ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

**السابعة:** في الآية التالية:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

**والمعنى:** اذْكر ـ كذلك ـ من نعمي عليك:

وقت أن ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى﴾ **أي:** ألهمت ﴿ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم الخواص، أو الأصفياء، أوحيت إليهم ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ تأييدًا لك بهم، ونصرة على مَن كفر من بني إسرائيل، ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الحواريون ﴿ءَامَنَّا﴾ بالله وبرسوله، ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلِصون في إسلام وجوهنا لله، وسائرون على درب كل المسلمين، من رسل الله تعالى وأنبيائه، وأتباعهم الصالحين المسلمين.

وبعد هذا التعداد لنعم الله على عيسى عليه السلام: يبيِّن ربنا عز وجل بعض ما جرى بين عيسى عليه السلام وقومه. فيقول جل جلاله:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** اذكر عندما قال الحواريون المؤمنون الصادقون في إسلامهم، المخلصون لله تعالىٰ قالوا لعيسىٰ: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي: يطيعك ربك، وينزِّل علينا مائدة من السماء، إذا سألتَه ذلك؟ ﴿قَالَ﴾ عيسىٰ لهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولا تقترحوا الآيات، بعد ظهور المعجزات، وكثرة الدلالات، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بكمال قدرة الله، وبصحة نبوتي.

وقال الإمام أبو السعود رحمه الله: أمرهم بالتقوىٰ؛ ليصير ذلك وسيلة لتحقق المطلوب، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

يعني: اتقوا الله؛ ليتحقق لكم نزول المائدة. وهنا أجابوه قائلين:

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝١١٣﴾

**والمعنىٰ:** ليس سؤالنا عن شك في قدرة الله، ولا اقتراح الآيات، ولا التعنُّت في طلب المعجزات؛ لأننا مؤمنون بقدرة الله عليها، ومؤمنون كذلك برسالتك.

ولكن سؤالنا له أهداف أربعة:

**الأول:** ﴿أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾ تبرُّكًا.

**الثاني:** ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بزيادة اليقين والمشاهدة.

**الثالث:** ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ عَيانًا، كما علِمناه استدلالًا.

**الرابع:** ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: نشهد عليها عند الذين لم يحضروها ويشاهدوها من بني إسرائيل، فيزداد المؤمنون منهم بشهادتنا إيمانًا ويقينًا، ويؤمن بها الكافرون منهم.

ولمَّا ظهر أن سؤالهم للعلم، وليس للتعنُّت، كان جوابه عليه السلام هكذا: قام، واغتسل، وصلَّىٰ، وطأطأ رأسه، وغضَّ بصره، وسأل ربه المائدة.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١٤﴾

**ومعنى الآية:** أن عيسىٰ عليه السلام توجَّه إلىٰ ربه وسأله نزول المائدة، قائلًا: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ كما طلبوا ﴿مَآئِدَةً﴾ وهي: الخوان إذا كان عليه الطعام ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ أي: نتخذ يوم نزولها ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: لمن في زماننا، ولمن يأتي بعدنا من أهل ديننا، وتكون ﴿ءَايَةً مِّنكَ﴾ علىٰ رسالتي، وصحة نبوَّتي، ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ بها ومنها رزقًا حسنًا طيبًا، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ المعطين للخلق ما سألوا من الأرزاق. وكان الجواب، كما تصوِّره الآية التالية:

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ لهم بعد سؤال عيسىٰ: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ﴾ كما طلبتم، لتزدادوا بها يقينًا وإيمانًا، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي: بعد إنزالها منكم ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذابًا يوم القيامة المنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

فنزلت الملائكة بالمائدة من السماء، كما يرىٰ جمهور الأئمة والعلماء، ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله: وهو الصواب.

وتقول الروايات: إنهم ـ أي: بني إسرائيل ـ أُمِروا ألَّا يخونوا، وألَّا يدَّخِروا منها، ولكن كثيرًا منهم: خانوا، وادخروا، وخالفوا، وكفروا، فعذبهم الله تعالىٰ عذابًا لم يعذبه أحدًا من عالمي زمانهم، ولا غير زمانهم، حيث مسخهم خنازير.

كان الحوار السابق بين عيسىٰ عليه السلام والحواريين في الدنيا، والحوار الآتي بين الله تعالىٰ وعيسىٰ عليه السلام في الآخرة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** اذكر وقت أن يقول الله يوم القيامة لعيسىٰ ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أجاب عيسىٰ عليه السلام ربه، قائلًا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أنت منزَّه عمّا لا يليق بك من الشريك وغيره.

ثم قال عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: ما ينبغي أبدًا لي ولا لغيري، ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ قولًا ليس لي أن أقوله، فضلًا عن أنه ليس حقًّا، ولا صدقًا في ذاته.

ثم، وهذا هو الأهم: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ﴾ وحاشا لله ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾ حيث إنك: ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أخفيه ﴿فِي نَفْسِي﴾ أي: معلومي، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ أي: معلومك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ كلها، ومن ذلك: ما انطوت عليه النفوس، ومن كان كذلك: لا يصل إلىٰ علم علمه أحد. ثم قال متبرِّئًا من دعاواهم:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

**والمعنى:** قال عيسىٰ عليه السلام لربه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ أي: لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ يعني: ما أمرتهم إلَّا بما أمرتني أنت به.

وفسَّر عيسىٰ ما أمره به ربه، وما بلَّغه هو به لبني إسرائيل، بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ أي: رقيبًا، مدة إقامتي فيهم وبينهم، أمنعهم مما يقولون، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قبضتني بالرفع إلىٰ السماء، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ﴾ أي: المراقب والحافظ لأعمالهم وأقوالهم، خاصة: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من قولي لهم، وموقفي معهم، وقولهم وموقفهم من بعدي ﴿شَهِيدٌ﴾ مطَّلع عالم به.

وبعد ذلك: فوَّض الأمر إلىٰ ربه قائلًا:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

**والمعنىٰ:** الأمر إليك يا رب ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ مَن كفر منهم، وعاند: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾ لك فيهم الأمر والنهي والتصرُّف، لا اعتراض عليك، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لمن آمن منهم: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب علىٰ أمره، الذي يعفو عند المقدرة ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، وأمره، وعفوه وعذابه.

ثم يختم ربنا الكلام عن حكاية ما يقع يوم القيامة مع الرسل حين يجمعهم بقوله عز وجل:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ القيامة ﴿يَنفَعُ﴾ فيه ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدنيا ﴿صِدْقُهُمْ ۚ﴾ لأنه يوم الجزاء، حيث: يكون ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقيمون فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، إنما هم فيها ﴿أَبَدًا﴾ إلىٰ ما لا نهاية.

وأفضل ما في ذلك: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعي المشكور، والعمل المقبول، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور، والنعيم والسرور.

**حقيقةٌ:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ؛ لأنه باق، بخلاف الفوز في الدنيا: فإنه لا يدوم.

**وفي نهاية السورة:** يحقُّ الله الحق، وينبِّه علىٰ كذب النصارىٰ، وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه عليهما السلام حيث يوضِّح بجلاء.. ملكيته للسمٰوات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، وتصرفه في الجميع كيف يشاء، وذلك بقوله جل جلاله:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

**ومعنىٰ الآية:** التعظيم لله، والتنزيه لله تعالىٰ من أن يكون معه إلٰه آخر؛ حيث إنه: مالك كل شيء، كما أنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المنع والإعطاء، والإيجاد والإفناء ﴿قَدِيرٌ﴾، ومن ذلك: إثابة الصادق، وتعذيب الكاذب.

* * *